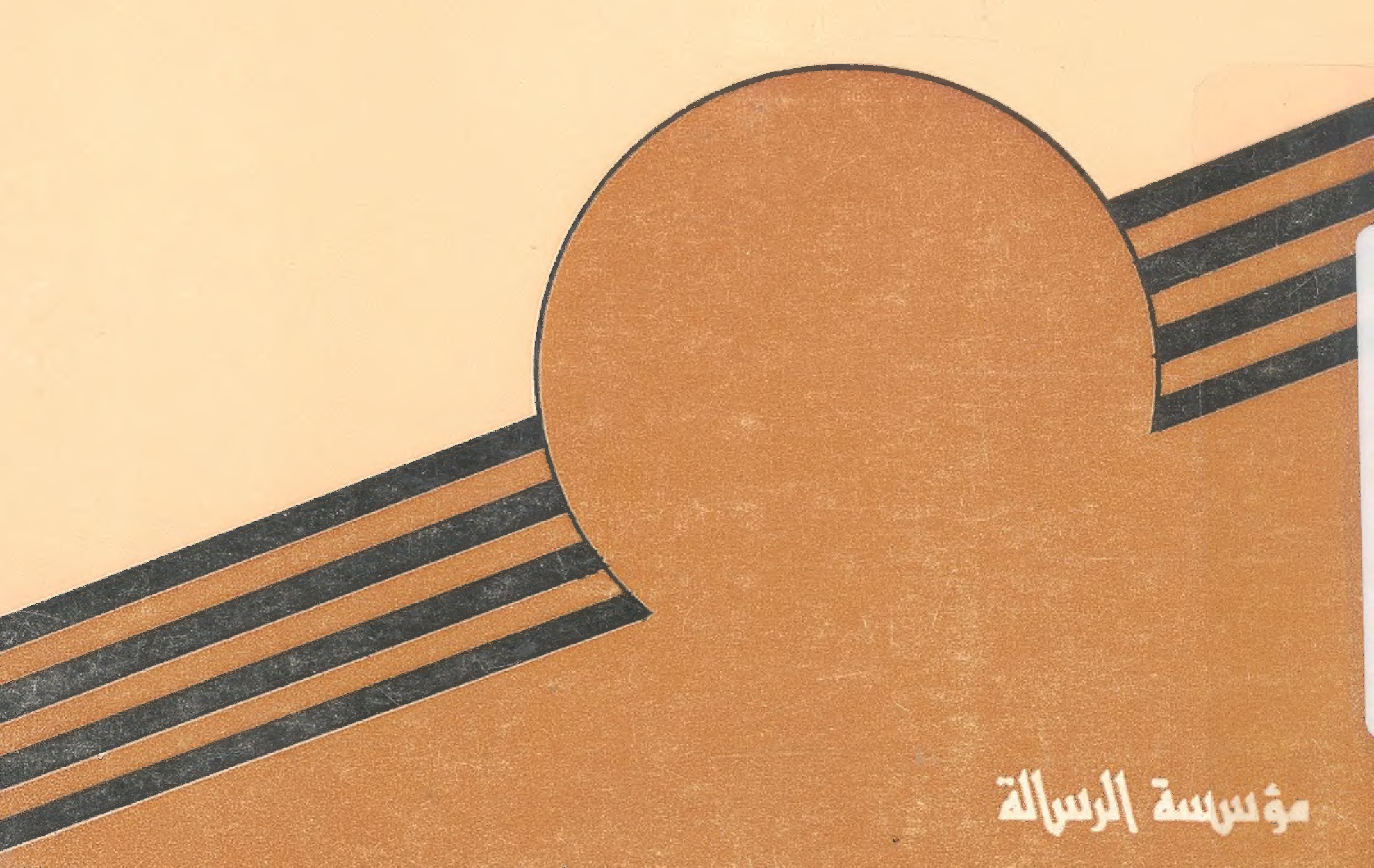
الدكتور نجيب الكيلاني

أدب الأطفال في ضوء الإسلام



مؤسسة الرسالة

أدب الأطفال
في
ضوء الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

الدكتور نجيب الكيلاني

أدب الأطفال في ضوء الإسلام

مؤسسة الرسالة



مقـــدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد

إن الإعتقاد السائد في العالم اليوم هو أن قضية الطفولة تحتل أولوية مطلقة، وذلك ما نـراه في دراسـات وبـرامـج المؤسسـات المعنيـة سـواء في ذلـك الإعلام والتربيـة والتعليم والصحة والفنون بشتى ألوانها.

وحل مشاكل الطفولة، هو الخطوة الأولى لإصلاح مسار الحياة، والتغلب على تعقيداتها وسلبياتها وهمومها..

وأدب الأطفال يلعب دوراً بارزاً وخطيراً في هذا المجال، وما نقدمه في هذا الكتاب، ما هو إلا محاولة متواضعة، في وضع تصوّر صحيح لمفهوم هذا الأدب، على ضوء تعاليم الإسلام وتجربته الحضارية الفذة.. أو بمعنى آخر «أسلمة» أدب الأطفـال، دون إهـدار للقيم الجمالية لكـل نـوع مـن أنواعه..

والله من وراء القصد.. والسلام.

مفهوم أدب الأطفال

جاء الإسلام بمنهج شامل متكامل للحياة، وكان هذا المنهج الإلهي نظاماً أمثل، من جهة النصوص والتطبيق، وكان نزوله منجماً وتدريجياً، ولم يترك ذلك المنهج شاردة ولا واردة في حياة الفرد والجماعة إلا وتناولها إجمالاً أو تفصيلاً.

على هذا الأساس كانت مسئولية المسلم.

وبديهي أن تلك المسئولية تتحدد في نطاق المبادىء الإسلامية والتشريعات والآداب التي يجب أن نترسم خطاها في حياتنا، من هنا كانت مسئولية « الكلمة ».. كما كانت مسئولية « الفعل ».. بل مسئولية المشاعر والعواطف والأهواء « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ». وهو أمر يقتضي إرادة قوية، ومجابهة لقوى الشر ونزواتها. وقد عرف بعض النقاد الأدب بأنه « فن الكلمة » وعرفه آخرون بأنه هو « المكتوب أو المنطوق من الكلام الجميل » وقالوا أيضاً: « أن العمل الأدبي يتحد مع النفسي »، أو يتمثل في نفوسنا، وفي نشاطنا النفسي..

وأضافوا أيضاً « أن آثار الأدب هي المتعة والمنفعة » « وأنه تعبير عن الحياة وسيلته اللغة »، وإن كان التعبير عن الحياة لا يعني نقلها إلينا كما هي، ولكنه يعبر عنها ويفسرها أو ينقدها، أو ينقل إلينا فهم الأديب للحياة، ووجهة نظره في أية قضية من القضايا، فالأديب يتخذ « موقفاً » فكرياً، ولذا يستطيع التأثير في مجتمعه، ولهذا يرى النقاد ـ بعضهم ـ أن المضمون الاجتماعي للعمل الأدبي، لا يستمد من واقع الحياة في المجتمع، بل من موقف الأديب الفكري من الحياة في هذا المجتمع، والمضمون في ذاته قيمة، وهو قيمة تتولّد عن موقف الأدب الفكري، من القيم الأخرى السائدة في المجتمع..

وهكذا نرى أن « المذاهب الأدبية » و « المدارس الفنية »، قد اختلفت في التعريف والمفهوم بالنسبة للأدب، كما اختلفت أيضاً حول المؤثرات التي تفعل فعلها فيه، وهذه الآراء والتصَوُرات المضاربة إنما تبعث أساساً من فلسفات إعتنقها القوم، فجعلتهم يتخذون وجهات شتى تتفق وقناعاتهم الشخصية، ونظمهم السياسية، « فالواقعيون » لا يؤمنون إلا بالحقيقة الواقعة التي يمكن الوصول إليها عن طريق التجربة، وينكرون أي عالم علوي فوق المحسوس، « والرمزيون » ـ على الرغم من معارضتهم لهرطقات العلم المادي الملحد ـ إلا أنهم أغرقوا أنفسهم في متاهات صوفية غامضة، وأولوعوا بالرموز التي تميع الدلالات المحددة، وتلقي بالفرد في غمرة إيحاءات

وأجواء غريبة، و «الكلاسيكية» إستندت إلى التجريدات العقلية وحدها، بينما تشبثت «الرومانتيكية» بالعاطفة، وتغنّت باليأس والألم والعذاب والضياع، وانحرفت «السريالية» إلى الآلية النفسية الصرفة، وأنكرت رقابة العقل، وحاولت الإيغال بعيداً عن الإهتمامات الأخلاقية بل والفنية، وقدم «الوجوديون» مسرحاً رافضاً متمرداً ساخطاً على كل القيم والتقاليد والأعراف والأديان، وتقوقعوا حول ذواتهم يقدمون لها القرابين والصلوات، وهو ضرب من الوثنية الضالة..

والآن، أين نحن كمسلمين من هذا الاضطراب الهائل؟؟ وأين نقف من هذه التيارات والفلسفات؟؟

لقد قلنا في بداية حديثنا هذا أن الأديب المسلم مسئول، وأن مسئوليته تحددها رسالته في الحياة، وتحكمها القيم الإسلامية، والعقيدة المبرأة من الشرك والأوهام، والشرائع المنزلة من الله على عبده ورسوله محمد بن عبدالله ﷺ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [1].

والنتيجة الواضحة:

---

(١) سورة الكهف.

- أن محمداً بشر يوحى إليه.
- العمل الصالح هو رسالة المؤمن
- العقيدة هي التوحيد.

الأدب الاسلامي - في ضوء الإسلام - يعنى بفن الكلمة، وليس أدل على ذلك من أن المعجزة الكبرى لدينا هي القرآن، وهو إعجاز بلاغي وبياني فوق طاقة أي بشر ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

والأدب الإسلامي، يتعلم من القرآن جمال السرد، وترابط الأفكار، وروعة التعبير لفظاً وجملة وعبارة وتأثيراً، كما يعنى بالبناء الكلي أو الصورة الفنية الممتعة المقنعة المفيدة، دونما شطط أو تضليل، ولا يبذر بذور الحيرة أو الملل أو الغموض في عقل الإنسان ووجدانه ونفسه.

والأدب الإسلامي لا يستمد مضمونه من قيم إجتماعية مريضة، أفرزتها تجارب معتلة، تؤثر فيها النزوات والأحقاد والأهواء، وإنما يستلهم الأدب الإسلامي مضمونه من عقيدة التوحيد، وكنوز الحضارة الإسلامية، وإرثها الإلهي المنزّه عن الخطأ والهوى..

ولا يعني ذلك تجاهل «التفاعلات» الإجتماعية الصاخبة، وما يسود الحياة من خير وشر، وصالح وطالح، وسقم

وصحة، فالأديب المسلم مطالب بتصوير الأزمة، وتحليل أبعادها، والبحث في أسبابها، والنظر إلى مضاعفاتها وآثارها، ووضع التشخيص المناسب للعلة، مع الإيحاء ـ بالاسلوب الفني المباشر وغير المباشر ـ بما يجب أن يتحرك الفرد والمجموع في إتجاهه، دون إهدار للقيم الجمالية والفنية.

الأديب الحق موقف..
وموقف الأديب المسلم ينبُع من عقيدته..

المهم الصدق في تناول المادة الأدبية، وتهذيبها وفق أسس النظام والتناسق والجمال والتأثير، بحيث تأتي الصورة الفنية ممتعة مُرضية ومفيدة، ونشعر بعد الإطلاع عليها، بأننا إزاء تجربة حية نابضة، تجرنا إلى علاقات جديدة من الفهم والسمو الروحي، واليقين المريح.. الخلاَّق.. الدافع لفعل شيء ما، يرتقي بنا إلى الأفضل، وإلى التغيير المستمر نحو الغاية العظمى..

وكل أديب له «ذاته المتميزة»، وأسلوبه الخاص، الذي يجعله مختلفاً عن أقرانه من الأدباء، فالفن ـ في أوجه ـ ابتكار وابتداع لصيغ جمالية مؤثرة، ولكل أديب مسلم طريقته المتفردة في الأداء، وإن اتَّحد الأدباء الإسلاميون أو اتفقوا حول المضمون الإسلامي، وهو تنوُّع مطلوب، وثراء محبوب، إذ ليس من المطلوب أن يكون الأدباء الإسلاميون نسخاً

متكررة، كما أنه على الأديب المسلم الجد والبحث عن أشكال جديدة مؤثرة، تزيد من قوة التـأثير، وتـواكـب العصـور، وتستخدم كل الإمكانات والطاقات المستحـدثـة، كـي يعبر أروع تعبير عن رسالته الخالدة.. ليس بدعاً إذن أن يتخذ الأديب المسلم موقفاً..

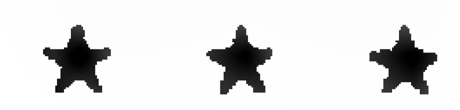
فكل المذاهب الأدبية فعلت ذلك..

وأنما الغريب والشاذ والباطل، أن نطلب من الأديب المسلم أن يكون متشبثاً بمبدأ «الفن للفن»، أو نطلب منه ـ باسم حرية الأدب والفكر ـ أن يتجاهل عقيدته، حتى لا يكون متعصباً رجعياً..

أليست هذه خديعة كبرى يحاول أعداء الإسلام إيقاع حملة الأقلام الاسلاميين فيها ؟؟

الأديب المسلم يجب أن يعتز بإنتمائه عن قناعة تامة، وإيمان عميق..

ذلك الإنتماء،مسئولية وإلتزام كما قلنا



وبعد...

لقد حاولنا تبسيط مفهوم الأدب بمعناه العام في السطور السابقة، وكان لا بد أن نفعل ذلك كي نصل إلى تحديد مفهوم أدب الأطفال الإسلامي..

وبإيجاز شديد يمكننا القول أن أدب الأطفال لا يختلف في مفهومه عن الأدب العام (الإسلامي) إلا في كونه موجهاً إلى « فئة خاصة » هي الأطفال

هذه الفئة تتميز بمستوى عقلي معين.

وبإمكانات، وقدرات نفسية ووجدانيـة تختلـف عنـا نحن الكبار فتجارب الطفولة وخبراتها محدودة، وآفاقها التخيلية واسعـة رحبـة لا تحدهـا حـدود، ولا تحاصرهـا ضـوابـط كضوابطنا نحن الكبار..

ووسائلهم في البحث والتفكير والتحليل والإستيعاب ليست كوسائلنا الناضجة، التي إكتسبناها بالمران والتجربة الطويلة، والثقافات المتنوعة.

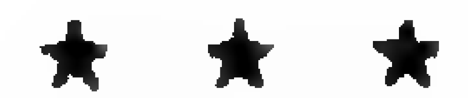
ولديهم رغبة جامحة في ارتياد المجهول، والإنطلاق عبر الآفاق، وتشكيل عالم خاص يختلف كثيراً عن عالمنا..

هذا وغيره أمور طبيعية بالنسبة للأطفال..

وما أشبه مراحل التطور البشري بمراحل تطور الطفولة.. ونظره إلى تدرج الرسالات السماوية منذ آدم ثم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، نلاحظ كيف وصلت الرسالات إلى الكمال في رسالة محمد ﷺ.. رسالة النضج والتمام، بعد أن بلغـت البشريـة سـن الرشـد ﴿اليـوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

ولقد تدرج منهج النبوة المحمدية في تربية وتعليم المجتمع المسلم طوال بعثته ﷺ وهي ثلاثة وعشرون عاماً.. أي منذ نزل عليه جبريل عليه السلام «باقرأ» حتى آخر كلمة جاءت في كتاب الله..

ذلك هو منهج الله بالنسبة لتربية البشرية منذ طفولتها حتى رشدها.. كذلك كان نفس المنهج بالنسبة لمجتمع الرسالة المحمدية في مكة والمدينة..



أدب الأطفال الإسلامي هو التعبير الأدبي الجميل، المؤثر الصادق في إيحاءاته ودلالالته، والذي يستلهم قيم الإسلام ومبادئه وعقيدته، ويجعل منها أساساً لبناء كيان الطفل عقلياً ونفسياً ووجدانياً وسلوكياً وبدنياً، ويساهم في تنمية مداركه، وإطلاق مواهبه الفطرية، وقدراته المختلفة، وفق الأصول التربوية الإسلامية، وبذلك ينمو ويتدرج الطفل بصورة صحيحة تؤهله لأداء الرسالة المنوطة به في الأرض، فيسعد في حياته ويسعد به ومعه مجتمعه، على أن يراعي ذلك الأدب وضوح الرؤية، وقوة الإقناع والمنطق.. ذلك هو المفهوم العام لأدب الأطفال حسبما يعتقد.

وهو المفهوم الذي يشمل الإحتياجات الأساسية للطفل حسبما أسفرت عنها دراسات العلماء المخلصين في الدين والتربية وعلم النفس والمجتمع والطب وعلم الجمال أيضاً..

وفي تراث البشرية الهائل، ترى أمراً عجيباً، يلفت النظر. لقد حرص أتباع جميع الديانـات، الوثنيـة منهـا والسماويـة، والمحرَّفة منها والصحيحة، على أن تقدم للطفل لوناً ما من ألوان الأدب، يعبر عن «الدين» والعقيدة

حدث ذلك في العصور السحيقة..
وحدث في الإسلام والنصرانية واليهودية..

بل إن بداية عهد «أدب الأطفال الحديث» ـ كما سنرى ـ إفتتح صفحاته بقصـص الأنبيـاء، والقصـص التي وردت في الكتب المقدسة، ونحن أنما نسجل تلك الحقيقة لكي نرد على أولئك الذين يزعمون أن الطفل في حداثته لا يستطيع تقبل أو فهم ما يُروى له عن العقيدة والمعنويات والألفاظ المجرَّدة، وحتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن أدب الأطفال لن يعدم الوسيلة الصحيحة الناجحة لإيصـال هـذه «المعلـومـات» أو المعنويات والمجردات إلى عقل الطفل، ومعلوم أن العقيدة هي الأساس: لبناء الكيان الـروحي والفكري للطفل، ومن ثم لا بد وأن تبدأ في وقت مبكر، ولو على سبيل التلقين والتبسيط أو التعبير بالصور المعبرة التي ترمز إلى شيء غير مرئي..

وأدب الطفل يشمل القصة والمسرحية والتمثيل والقصيدة أو النشيد أو الأغنية، كما يشمل الآداب العامة كالتحية التي يستقبل بها الناس، وما يقال عند الطعام أو النوم، وبعض

الأمور الهامة كالشهادتين والصلاة على النبي وقصار السور والأحاديث، وبعض السلوكيات الإجتماعية والأسرية خاصة، كل ذلك في أسلوب مناسب مفهوم، منذ الصغر.. وعندما نتمعن في كتب السيرة والتراث، شعراً ونثراً نجد تطبيقاً دقيقاً لما أشرنا، ففي أحاديث الرسول ﷺ نصوص كثيرة تتعلق بالطفولة، والعناية بالأطفال وتربيتهم وتعليمهم والعطف عليهم، وتدريبهم على الصلاة والصوم وفعل الخير،

« يا غلام.. احفظ الله يحفظك
احفظ الله تجده تجاهك

واعلم أن الناس لو إجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.. » ألخ الحديث

وكانت النسوة يهدهدن أطفالهن بالأغاني العذبة، ويبثثن في هذه الأغاني ما يرون من قيم وأفكار.

وعمرت المساجد منذ العصر الأموي برواة القصص والأخبار، التي كان يستمع إليها الكبار والصغار على حد سواء وقد برز في هذا المجال نخبة من أعلام القصاصين، وخاصة في مجال الوعظ والإرشاد.

ثم جاء ابن المقفع ليقدم « كليلة ودمنة »، وقصصه الغريب عن عالم الحيوان والطير، ويدس فيه الكثير من الأفكار الفلسفية العميقة، ويخطيء من يظن أن هذا الكتاب كان

قاصراً على الكبار وحدهم، فقد كان هناك من يبسط هذه القصص ويعيد صياغتها دون تعقيد أو غموض، ويقدم للأطفال منها ما يسد النقص في أدبهم وثقافتهم، وقد فعل ذلك الغربيون بعد قرون حينما ترجم إليهم هذا الأثر الفذ، نذكر منهم «لامرتين» الفرنسي، كما فعل الشرقيون نفس الشيء نذكر منهم أمير الشعراء احمد شوقي، وكامل كيلاني وسعيد العريان وغيرهم.

وكانت قصص «ألف ليلة وليلة» برغم ما فيها أحياناً من فحش في القول، وإغراق في الجنس، وتماد في الخرافة والسحر، كانت زاداً ثرياً لمن استلهموها ونقلوا عنها، ممن اهتموا بأدب الطفل وكتبوا فيه..

وفي تراث الجاحظ، وكتاب الأغاني، وقصص الصالحين والحرب والعلم والجن وغيرها الكثير من الموضوعات التي يمكن الاستفادة منها في الكتابة لأدب الطفل.

ناهيك بقصص القرآن وقصص الانبياء، وما تزخر به من حكم ومواعظ، وما ينجلي عنها من مؤثرات عميقة تتعلق بعقيدة الطفل وسلوكه وإيمانه بالله..

★ ★ ★

إن الذين يكتبون أدباً للطفل المسلم، يستطيعون أن يفعلوا الكثير على ضوء الإسلام، مع ضرورة تمسكهم بالقيم الجمالية

لكل لون من ألوان أدب الأطفال، وعليهم أيضاً ألا يهدروا ما توصل إليه علماء النفس والتربويون والنقاد المخلصون، لأن هؤلاء الباحثين حاولوا جاهدين أن يكتشفوا عالم الطفل الداخلي، ويستنيروا بالهدى الإلهي، والتجارب الحية، والدراسات الميدانية، أملاً في معرفة العوامل المختلفة، والمؤثرات العديدة، التي تفعل فعلها في عقل الطفل ونفسه ووجدانه وسلوكه، وهي محاولات ـ وإن لم تصل حد الكمال ـ جديرة بالنظر والتطبيق إذا لم تتعارض مع حقائق الاسلام ونصوصه.

إن للأطفال خبراتهم وتجاربهم وأحلامهم الخاصة، وأديب الأطفال الحق هو الذي يستخدم أداة اللغة بطريقة خاصة تجعل الطفل يستشعر المتعة والجمال، والنظام والتوازن، فتحدث الاستجابات الوجدانية والنفسية المطلوبة، بل أثرى وأوسع مما هو مطلوب، ويكتسب الطفل عندئذٍ خبرة جديدة تثري فكره، وتحقق له السعادة، بل والدهشة أو العجب أحياناً، ومن لا يتوفر لديه معرفة كافية بعالم الطفولة الخاص، فسوف يكون من العسير عليه الوفاء بمهمته الصعبة، لان الطفل صريح. ويقبل أو يرفض بصراحة. ويعبر عن انطباعه بحرية، فيقبل على الكتاب بنهم وشغف، أو يلقي به بعيداً في ملل وإهمال. ومن الصعب على الطفل ان يستمر في أداء فعل لا يحبه.. أو كما يقولون الطفل ناقد صادق. لا يعرف

المجاملة فيما يقرأ من أدب، وان لم تكن لديه القواعد الأكاديمية لتقويم العمل الأدبي.. إنه يملك شيئاً واحداً: الشعور بالمتعة..

أقول هذا الكلام خاصة لأولئك الذين يزحمون كتاباتهم للطفل بالكثير من القيم والمضامين العظيمة، لكنهم للأسف يقدمونها في إطار مهلهل، أو شكل فني مقبض، وتكون النتيجة إنصراف الطفل عن الجواهر الغالية التي أرادوها له هدية قيّمة.

الصورة الفنية الحية الجذابة هي العنصر الأساسي، وبدونها ينطمر المضمون في طيات الملل والاهمال والنسيان..

دائماً.. وأبداً.. يجب أن نجدّ في البحث عن أفضل الأساليب، وأجمل الأشكال والأطر التي نقدّم من خلالها ما نريد من قيم وأفكار لأطفالنا.

وإذا كان البعض يزعم أن الدين والفن لا يلتقيان. ويظن هذا البعض، أن هدف الفن الجمال، وهدف الدين الحق، إذا كان الظن كذلك، فإنه ظن أوحت به نظرية «الفن للفن» وغيرها من النظريات التي تركز على الإستمتاع وحده، ونسوا أو تناسوا أن الحق قمة الجمال والروعة، وأن الدين يسعى حثيثاً لإسعاد الإنسان، وجعل حياته تتسم بالنسق والنظام البديعين، في ظل الإيمان والصدق، وأن الفن كذلك يسعى لإسعاد

الإنسان وجعل حياته تنبض بالجمال والخير والحق والايمان؛ ذلك هو الفن الصحيح، وما عداه فهو فن لا يترسم خطى الفكر السليم؛ والحياة السوية، والمشاعر الصادقة.

ألا ترى أن الفن والدين يلتقيان عند نقطة واحدة؟؟

يقول روسو في ذلك عن طفله « ... إن الفرض الاساسي من تربيته هو أن أعلمه كيف يشعر، ويحب الجمال في أشكاله، وأن أرسّخ عواطفه وأذواقه، وأن أمنع شهواته من النزول إلى الخبيث والمرذول، فإذا تم ذلك. وجد طريقه إلى السعادة ممهداً..»

تاريخ أدب الأطفال عند العرب

يكاد يجمع المؤرخون أن أدب الأطفال يوجد حيث توجد الطفولة، وهو جزء لا يتجزأ عن باقي احتياجاتها المادية والنفسية والروحية، فكما يحتاج الطفل إلى الطعام والشراب، وإلى الرعاية والحنان، فإنه في حاجة ماسة إلى ما يثري فكره، ويسعد روحه ووجدانه، وإذا لم يستوف الطفل تلك الاحتياجات المادية والمعنوية، فسوف يكون عرضة للمعاناة والاضطراب. لأنها جزء من فطرته، وقد كانت الأم من قديم الزمان تدرك احتياجات طفلها بالفطرة، فتقدم له ما يرفه عنه ويثري خبرته، ويتواءم مع طبيعته.

ولا ينقض هذا الرأي ما درج عليه المؤرخون من تجاهل يكاد يكون تاماً لأدب الأطفال شعراً ونثراً. فلم يحظ قديماً بالدراسة والتسجيل والتبويب. خاصة وأن أدب الأطفال في السنوات الأولى كان من واجبات الأسرة، الجدة أو الأم أو الأب وغيرهم من أفراد المنزل، ولذلك كان خاضعاً للإجتهاد الشخصي. والتقليد. وتوارث التراث جيلاً بعد

جيل، شأنه في ذلك شأن الكثير من روايات وأشعار الكبار التي كان يتناقلها الرواة المتخصصون.

وكان أدب الكبار فيه الكثير مما يصلح للصغار، وخاصة القصص والأخبار. وشعر الملاحم أو الربابة، وكان للقبائل قصّاصُوها ورواتها وشعراؤها الرسميون، وكان الناس يحترمونهم ويستمعون إليهم في شغف. والأطفال ـ لا شك ـ يختلطون بجمهور السامعين، ويلتقطون ما يستطيعون فهمه من حكايات ومغامرات وأساطير وخاصة ما يتعلق بالقبيلة وأيامها وانتصاراتها. كما كانت النسوة في البيوت أو الخيام يروين لأطفالهن تلك القصص بأسلوب أبسط سلس. ويركزون على ما فيه من عظة وعبرة.

ونلاحظ حتى في أيامنا هذه الدور الذي يلعبه «شعراء الربابة» في البادية العربية، وفي القرى والأوساط الشعبية. فهؤلاء الشعراء يلجأون إلى قصص أو ملاحم مثيرة شيقة، يسيرة الفهم. مفهومة العبارة، رنانة القافية والإيقاع، وكان هؤلاء الشعراء القصاصون أو الملحميون يطربون سامعيهم كباراً وصغاراً، ويهولون في وصف المعارك والبطولات، وأساليب التحايل والدهاء، وألوان الحب والشقاء، والتشبُّث بقيم الشجاعة والكرم والفتوة، على غرار ما نسمعه من هؤلاء الشعراء اليوم عن سيف بن ذي يزن اليماني. وعنترة بن شداد،

والأميرة ذات الهمة، وأبي زيد الهلالي وغيرهم، كان لكل عصر بطولاته وقيمه واهتماماته، ولم يكن أطفال العصور العربية في معزل عن هذه الألوان الفريدة من التسلية والفن والعبرة.

ونقرأ بعد ذلك في سيرة الرسول ﷺ، كيف أرسله قومه إلى البادية ـ شأن أطفال العرب في ذاك الزمان ـ حيث يتلقى اللغة العربية صافية من الشوائب واللكنات والتحريف، ويتعود على حياة الصحراء وما فيها من كفاح وتقشف وتحمل، ويتشرب تقاليدها التي تبرز قيم التآلف والمحبة والكرم والصبر، والشجاعة والجرأة، وحيث ينعكس امتداد الصحراء ورحابتها والانطلاق فيها على نفس الانسان، وحيث يكون لكل فرد دور بنّاء يقوم به لخدمة نفسه ومجتمعه، كانت البادية في ذلك الوقت هي أول مدرسة يتلقى فيها الطفل ما يفيده:

نفسياً.
وبدنياً.
وعقلياً.
وإجتماعياً.

ويعود الطفل من بعثته تلك في البادية، بعد أن يكون قد تعلم اللغة على أصولها. وحفظ قدراً من أشعارها وقصصها ومغازيها، وتسلح بالكثير من قيمها وتقاليدها وانسابها. كي

يواصل حياته بين أهله على أسس تربوية معترف بها.

يعود الطفل ليسمع سجع الكهان، وأساطير الأديان القديمة المحرفة، وخرافات الوثنيات والأصنام، ويتلقى العلوم الخاطئة السائدة عن أسرار الكون. وتحليل الظواهر الطبيعية، بصورة اقرب الى الإختراع والسذاجة والتوهم منها إلى الحقائق العلمية الصحيحة.

ثم يشرق فجر الإسلام الوضّاء، على تلك البقاع الشاسعة، ويدعو إلى عقيدة نقية أبيّة، سهلة الفهم والتناول، الله واحد لا شريك له، خالق كل شيء، بيده الأمر كله، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، كما يدعو إلى الطهر والنقاء، وإلى العدل والحرية، وإلى التآخي والصدق والمحبة ويجابه العصبيات والوثنيات، وينفر من الظلم والإستغلال، والتعالي بالأحساب والأنساب «كلكم لآدم وآدم من تراب»، ويحذر من مغبة الإنخراط في التطاحن والتحارب والتعادي من أجل أمور دنيوية تافهة، أو أمجاد زائفة، ويضع أسساً جديدة للبطولة والكرم والعلاقات الإنسانية. وهكذا يحدث الصراع الخالد بين المؤمنين الأوائل وعلى رأسهم محمد ﷺ. وبين سنة الشرك القديم، والقيم الفاسدة العالية، وينتصر الحق ـ بعد تجربة مريرة ـ وتتبدل الحياة شكلاً وموضوعاً، ويولد عالم جديد ينبض بالحق والخير والحب والجمال تحت راية التوحيد، وعلى هدى القرآن ـ دستور الحياة الأوحد ـ وبتوجيه من

القيادة الراشدة الحكيمة محمد عبدالله ورسوله.

ويعنى الإسلام ضمن ما يعنى «بالطفولة»، فيعلم أصحابه كيف يحنون ويبرون بأطفالهم، ويدعوهم الى العدل بين أولادهم ولو في القبل، ويجعل من ظهره الشريف مركباً لحفيديه الحسن والحسين ويداعبهما في رقة وحب، ويغرس فيهما الفضيلة، ويعلمهم القرآن والوضوء والصلاة وطاعة الله، ويمشي في الشارع ويلقي على الأطفال التحية، ويبتسم في وجوههم، ويرد ـ في رحابة صدر ـ على تساؤلاتهم، ويبين للمسلمين حقوق الطفل الشرعية جنيناً ورضيعاً وطفلاً وصبياً وغلاماً، وهو أمر يذكره فقهاؤنا الأعلام في أبواب التربية والحضانة والنفقة والميراث، وحقهم في التعليم والرعاية، كما ذكر ﷺ الكثير حول التعامل معهم، وما يجب عليهم من صلاة وصوم وفروسية، وهي جوانب شتى تتعلق بحياة الطفل بدنياً ونفسياً ووجدانياً وفكرياً. واهتم القرآن الكريم باليتيم وماله ورعايته وحقوقه والوصاية عليه، وأشار ﷺ إلى ما ينتظرنا من ثواب الله، إذا ما نفَّذنا تعاليم الكتاب والسنة نحو هؤلاء الأطفال..

ولهذا فإن القائم بالتربية الصحيحة لهؤلاء الأطفال له عند الله ـ وعند الابناء ـ الجزاء الأوفى ﴿وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾.

ترى هل ترى في أي دين من الأديان السابقة على الإسلام

روعة وشمولاً واهتماماً برعاية الطفولة كما نراها في ديننا الحنيف؟؟

وجاء عصر الخلفاء والتابعين ومن تبعهم بإحسان، فاقتدوا بتعاليم بني الإسلام في تربية الأطفال والعناية بهم من شتى الوجوه..

يقول عمر بن الخطاب «علموا أولادكم السباحة والفروسية، وارووهم ما سار من المثل، وحسن من الشعر» ويقول هشام بن عبد الملك لمعلم ولده: «وأول ما أوصيك به، أن تأخذه بكتاب الله، ثم أروه من الشعر أحسنه. ثم تخلل به في أحياء العرب، فخذ من صالح شعرهم، وبصِّر، بطرف من الحلال والحرام، والخطب والمغازي» ويقول الإمام الغزالي: «إن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه. وقلبه الطاهر جوهرة نفسية ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما يُنقش، ومائل لكل ما يُمال إليه، فان عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه. وسعد في الدنيا والآخرة» وبعد أن يفيض الغزالي في بيان الطريق لتربية الطفل في المرحلة الأولى، مرحلة التقليد والتلقين، وهي من أهم المراحل في حياة الإنسان، من حيث تحديد الخلق والشخصية. ينتقل إلى التالية، وهي مرحلة التعليم فيقول: «ثم يشتغل في «المكتب»، فيتعلم القرآن، وأحاديث

٦الأخبار، وحكايات الأبرار.. الخ»[1]

ووجد القصاصون في قصص القرآن الكريم مادة ثرية للأطفال، فكانت تروى لهم بصورة مبسطة، وكذلك بعض ما ورد في الأحاديث النبوية، ومغازي رسول الله. وحروب الصحافة ومن أتى بعدهم، وجهاد المسلمين لنشر الدعوة الاسلامية في مشارق الارض ومعاربها، وأخبار العلماء والصالحين والرحالة والمسافرين للتجارة. وأخبار الأمم الأخرى كذلك، كل تلك المصادر أغنت القصص التي تروى للأطفال، وخاصة بعد أن أفقد الفتح واتسعت الدولة، وتوفر عدد من المؤلفين المسلمين وكتّاب التراث؛ على تسجيل حكايات وأساطير عن مختلف الأزمنة والأمكنة؛ ونذكر هنا بعض المؤلفات القديمة الخاصة بهذه الجوانب:

- «نهاية الأرب»
- «مختصر العجائب والغرائب» المنسوب للمسعودي
- «الوزراء والكتاب»
- «الأغاني»
- «البخلاء»
- «كليلة ودمنة»
- «ألف ليلة وليلة»

---

(١) من أدب الأطفال. ص ٢٣٩ وما قبلها ـ تأليف دكتور علي الحديدي.

- « القدح المعلى »
- مقامات الحريري » و « مقامات بديع الزمان الهمذاني » وغيرهما.
- « والكثير من قصص الوعّاظ » الخ.

وعلى الرغم من أن معظم هذه الكتب لم تسطر أساساً للأطفال إلا أنها كانت مصدراً غنياً بشتى ألوان القصص والأشعار، يستلهمها المربّون والجدات والأمهات والآباء، ويخرجون منها ما يناسب عمر الطفل وأخلاقه وعقيدته، ويقدمونها إليه في ثوب قشيب جذاب، ففي « ألف ليلة وليلة » الكثير من الخرافات والخزعبلات والتصوير الجنسي الفاضح، وهذا ما دعا عدد كبير من الكتاب المحدثين إلى تنقيتها من الشوائب، وتقديم بعض قصصها في كتب أو تمثيليات في المذياع والتلفاز بطريقة مبسطة ممتعة ومفيدة، كذلك نرى أن كتاب « كليلة ودمنة » يحتوي على عدد كبير من قصص الطير والحيوان. لكنها تنحو المنحى الفلسفي، والإغراق الرمزي، مما يدق على فهم الطفل، ولهذا حاول الذين يكتبون للأطفال في أوروبا والعالم الإسلامي تحويلها إلى قصص هادف مبسط ذي منحى أخلاقي.

لقد أدرك الأقدمون من علماء الإسلام أن المنهج التربوي الشامل للطفل لا يتم اكتماله إلا إذا راعى النواحي المختلفة التالية:

- العقيدة الدينية
- المنجزات والحقائق العلمية
- الجوانب الترفيهية والفكاهية
- الالتزامات الأخلاقية
- تنمية المهارات الرياضية
- تنمية المواهب أو المهارات والإبداعات الفنية .
- إثراء الحصيلة الثقافية

ولا يصح أن يأنف المربون الاسلاميون من مراعاة الفكاهة والترفيه ، فقد كان رسول الله « يمزح » ولا يقول الا « حقاً » ، وكان ﷺ يأمر المسلمين بأن « يروحوا » عن قلوبهم ساعة بعد ساعة ، لأن القلوب إذا كلّت عميت .

لقد خطى الأطفال في تاريخنا الإسلامي والعربي بقسط وافر من أدب الطفولة ، ولا ينقض هذا الرأي تجاهل المؤرخين والمصنفين له ، ويمكننا أن نوجز ألوان هذا الأدب في الآتي :

أولاً : قصص الاخبار والمغازي والمثل وحكايات الأبرار والصالحين (قصص واقعي وتاريخي)

ثانياً : ما ورد في القرآن من قصص .

ثالثاً : ما ورد في الأحاديث النبوية من قصص .

رابعاً : قصص الفتوحات الإسلامية ، وقصص الشعوب الأخرى ـ غير العربية ، التي تم فتحها ونشر الإسلام فيها ، والقصص الشعبي .

خامساً: قصص الأسفار والتجار والرحلات.

سادساً: بعض قصص الجن والملائكة والسحر.

سابعاً: قصص على لسان الحيوانات والطيور.. بل والحشرات أيضاً.

ثامناً: قصص خرافية وأساطير (انظر كتاب «القدح المعلى» لابن سعيد الأندلسي عن اساطير العرب: وكتاب «مختصر العجائب» وفيه حكايات عن الجن والخوارق، وكتاب «الوزراء والكتاب» للحيشارى المتوفي عام ٩٤٢ م، وفيه الكثير من الخرافات والأسمار.

تاسعاً: الأناشيد والأغاني والأشعار.

عاشراً: الحكم والأمثال والخطب.

حادي عشر: بعض الألغاز شعراً ونثراً.

★ ★ ★

ثم جاء العصر الحديث، وامتدت الآفاق أمام الدراسات الإنسانية على مختلف صورها وأشكالها، واستطاع علم «الفسيولوجيا» ـ علم وظائف الأعضاء، والإجتهادات المختلفة في علم النفس والإجتماع ومدارس التاريخ المختلفة، ودراسة الظواهر الاجتماعية قديماً وحديثاً، وتحديد المدارس الأدبية والفكرية والفنية بصفة عامة، وكتب الكثير عن

« سيكولوجية » الطفل وسلوكه وعاداته وإمكـانـاتـه، واتخذ الدارسون في هذا المجال وسائل شتى في دراساتهم وتحليلاتهم، وكان لعلماء التربية جهود مكثفة حول التعليم والتربية.

وبدأ أدب الأطفال يظهر بصورة مبلورة محددة في القرن السـابـع عشر الميلادي في أوروبـا، متتلمـذاً على التراث الإسلامي والعربي، ولم تتضح صورته الجديدة في عالمنا العربي إلا في العشرينات من هذا القرن، وكان أهم سمات تلك الحركة التاريخية الخاصة بأدب الأطفال:

١ ـ الكتابة خصيصاً للأطفال.

٢ ـ مراعاة مراحل العمر المختلفة للطفل.

٣ ـ محاولة إيجاد قاموس للألفاظ يناسب الطفل في كل مرحلة.

٤ ـ تحديد تعريف ومفهوم أدب الأطفال.

٥ ـ تحديـد ألـوان أدب الأطفـال مـن قصـة وشعـر وتمثيلية.. الخ.

٦ ـ محاولة إبراز الموضوعات المناسبة لكل مرحلة من عمر الطفل.

٧ ـ الاستفادة من خبرات علماء التربية والدين والنفس والاجتماع ومؤرخي الأدب والنقاد في هذا المجال.

٨ ـ احتفـاء كبـار الكتـاب ـ على المستـوى الإقليمـي

والعالمي ـ بالكتابة للطفل.

٩ ـ ظهور مجلات وصحف خاصة بالطفل.

١٠ ـ تخصص بعض دور النشر لطباعة ونشر كتب الأطفال.

١١ ـ استخدام الوسائل الجذابة في إخراج مطبوعات الأطفال من ألوان ورسوم.

١٢ ـ اختيار حجم الحروف المناسب للطفل، ومدى استخدام الترقيم طبقاً للعمر والقواعد.

١٣ ـ استخدام حوافز وجوائز لتشجيع أدب الأطفال.

١٤ ـ وضع الخطط والبرامج للنهوض بأدب الأطفال ثم التقويم المستمر لما يُقدم لهم.

١٥ ـ البحث الدائب في إيجاد مسرح وتمثيليات وبرامج إعلامية خاصة بالطفولة، وتتناول كل ما يهم الطفل ويؤثر في سلوكه وتربيته.

١٦ ـ الإيحاء للطفل بقيم وأفكار وسلوكيات مستهدفة. باعتباره ثروة حقيقية للغد، وباعتبار ذلك حقا أكيداً له، لا يمكنه التعبير عنه بصدق وطلاقة.

* * *

ونحن إذا ما نظرنا إلى هذه السمات التي جعلت من أدب الأطفال في عصرنا «كيانا متميزاً قائماً بذاته»، ندرك أن

جذورها الحقيقية ضاربة في أعماق تاريخنا الإسلامي، وكانت تؤدي كواجب يومي للأسرة وللمربين الأقدمين. وإذا كان علم النفس أو الإجتماع لم يتوفرا في الأزمنة القديمة بمفهومهما ومصطلحاتها المعاصرة. إلا أن طبيعة النفس الإنسانية وحركتها ونزعاتها ونزواتها، وكذلك ما يؤثر فيها سلباً وإيجاباً: ثم الحركة الإجتماعية ودوافعها وعلاقاتها، وضعفها وقوتها، هذا كله... وذاك، كان يتبدى عقيدة وسلوكاً وفكراً وتشريعاً، في صميم حضارتنا الإسلامية، وقد خلف لنا الأقدمون تراثاً ضخماً يتعلق بالنفس والمجتمع، ونظرة واحدة ما تركه ابن خلدون والغزالي والفقهاء والمفكرون والأطباء الإسلاميون القدامى والمؤرخون، تؤكد صحة مانذهب إليه، في أن هذه العلوم (علم النفس والإجتماع وغيرهما) ليست جديدة تماماً، وإنما جدتها تكمن في صياغتها وتصنيفها. والتجارب العديدة التي أجريت عليها، ثم النتائج المختلفة في بعض الأحيان التي تم التوصل إليها، فما زالت مدارس علوم الإجتماع والنفس والتاريخ في روسيا، تختلف عنها في أوروبا لكن إكتمال العقيدة الإسلامية وثبوتها وتساميها، قد أرسى قواعد صلبة، لنهضة علمية شاملة، وقدم تصوراً صادقاً فريداً للنفس والمجتمع ولحركة التاريخ والعوامل المؤثرة في نمو الفرد والجماعة، والمنهج الصحيح الذي يمضي بنا إلى طريق الخير والسعادة.

أينكر أحد أن معظم « أدب الطفل » ـ قديماً وحديثاً ـ يهتم بتربية الطفل وتهذيبه، وفق قيم الخير والحق والفضيلة؟؟

هل خلا أدب الطفل قديماً وحديثاً ـ من قصص العلم والبطولة والتضحية والصبر والطهارة والأمانة، وتوجيه الطفل إلى ما يسعده وينفعه ويسمو بأمته؟؟

لقد كان أهم ما استفدناه من الدراسات الإنسانية والعلمية الحديثة، هو التأكيد على صحة الأسس التي قامت عليها مناهج تربية الطفل في المجتمع الإسلامي الأول.

★ ★ ★

ولقد كان المرحوم كامل كيلاني رائد أدب الأطفال الحديث، وعلى الرغم من أنه قدم نماذج شتى في هذا المجال، منها المقتبس والمترجم والمعرب، وقد بلغت ما يربو على مائتي قصة ومسرحية، فقد كان في قمة ما قدم.. قصصه « من حياة الرسول »، إذ أفاض فيها بأسلوب سلس ميسور الفهم عما اتصفت به سيرته ﷺ من أعمال وخلق وسلوك، تعتبر المثل الأعلى للكبار والصغار في أي زمان ومكان..

هذا في مجال القصة..

أما في مجال الشعر، فقد قدم أمير الشعراء « أحمد شوقي » والمرحوم محمد الهواري (١٨٨٥ ـ ١٩٣٩) نماذج متقبلة من شعر الأطفال. أمكنها أن تفتح الطريق أمام من أتى بعدهم من الشعراء والأدباء.

واليوم نرى مطبوعات الأطفال تزحم المكتبات وأرصفة التوزيع. إن عشرات الملايين من أطفالنا يريدون أن يقرأوا برغم وجود التلفاز والمذياع ودور الخيالة...

ولنا الآن أن نتساءل:

أ ـ هل أدت دور النشر رسالتها الصحيحة نحو الطفل؟؟

ب ـ وهل أدى المؤلف واجبه؟؟

حـ ـ وهل قامت المدرسة بوظيفتها؟؟

د ـ وهل استطاع الإعلام الرسمي أن يستوعب دوره؟؟

أسئلة أربعة حاسمة لا بد من أن نحاول الإجابة عليها، لأن الإجابة عليها هي التي تؤكد ضرورة وضع هذا المصنف.

إن دور النشر تعرف مدى الحاجة إلى مؤلفات الأطفال، وهي تستغل هذه الظاهرة تجارياً، وتقدم العديد من المنشورات. في أحيان كثيرة على غير أسس علمية وتربوية ونفسية وعقيدية. لأنها تتوهم أن سهولة الأسلوب، وإمكانية الفهم والإستيعاب هما الاساس في توزيع الكتاب، لذلك فهي تقدم المترجمات التي تتنافى مع عقيدتنا الإسلامية، وتملؤها بالشعارات والرموز والممارسات الغير إسلامية. وتنقل عن الغرب أسلوبه في السلوك والعادات والمعتقدات. ويكفي أن تعلم أن إحدى المدارس الخاصة في بلد عربي مسلم كبير.

كانت تدرس قصة إنجليزية مليئة بالمشاهد الجنسية، والإختلاط المحرّم بين الفتى والفتاة. وقد شغل هذا الموضوع الصحافة آنذاك، وأصدر وزير التربية والتعليم في هذا البلد الشقيق قراراً بإيقاف تدريس القصة، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن دور النشر لا يهمها أن تجند لتلك المطبوعات « فريق مراجعة » من الناحية النفسية أو التربوية كما قلنا، لأنها لا تدرك الأبعاد الخطيرة لهذا الموضوع، ناهيك بما تغص به الكتب المترجمة والمسلسلات المصورة، بخيالات مريضة، ومغامرات فارغة، لاترتبط بواقع الحياة، ولا بالفترة الزمنية في الدول النامية، ولا تدفع الطفل مستقبلاً إلى قناعات علمية عملية واقعية، تمهد له الإبداع والإبتكار، كما أنها لا تهتم - بل لا تعرف... أصول العقيدة الإسلامية ومبادئها، وبالطبع فإن هذا التصور لا ينطبق على دور النشر كلها: ففي مصر والمملكة العربية السعودية والكويت وغيرها مؤسسات عريقة للنشر تحت إشراف المختصين في تربية وأدب الأطفال، وتقوم بدورها البنّاء الرائد في هذا المجال، سواء في الكتاب أو مجلة الطفل، أو الصفحة الخاصة بالأطفال في بعض الصحف اليومية والأسبوعية.

أما بالنسبة للمؤلفين للأطفال، فهناك فئة قليلة استطاعت أن تؤمن بقضية الطفل، وتدرك احتياجاته الشديدة لما يرفع مستواه فكرياً ونفسياً ووجدانياً، واتخذت العدة لذلك، بل

إن البعض تفرغ له تماماً. وأخذ يكتب للطفل عن هدى وبصيرة، لكن الغالبية الكبرى من المؤلفين، استسهلوا الأمر، وأضرّوا من حيث توهموا النفع، ولم يسيروا في منهج أو خطة، ولم يعدوا أنفسهم الأعداد الكافي لهذه المهمة الصعبة، مهمة الكتابة للأطفال، وهؤلاء يشاركون دور النشر التجارية في مسيرتهم الفاسدة، ويستغلون شراهة سوق كتب الأطفال، ويقدمون السُم في الدسم بقصد أو بغير قصد، ومن المعروف أن النوايا الحسنة وحدها لا تصنع أدباً أصيلاً مؤثراً صادقاً للأطفال، إننا نريد أدباء مخلصين للطفل، ومؤهلين تأهيلاً سليماً لتلك الرسالة، مثلما فعل الأساتذة كامل كيلاني ومحمد الهواري ومحمد سعيد العريان ومحمد عطية الإبراشي وأمير الشعراء ومحمود أبو الوفا وبهيجة صدقي، وأمين دويدار ومحمد زهران وحسن توفيق وسيد قطب وتوفيق بكر ومحمد عبد المطلب وحامد القصبي وعلي فكري وغيرهم. كما نريد مجلات على غرار مجلات السندباد وسمير وبابا صادق و «إفتح يا سمسم»... الخ.

أما وزارات المعارف أو التربية والتعليم فقد كانت بحق - في بلادنا العربية - هي الجهات المتميزة التي استطاعت أن تلعب دوراً إيجابياً علمياً في إعداد وتقديم مطبوعات الأطفال، شعراً ونثراً، فقد كان له في غالبية الأحيان لجانها المتخصصة، وعلماؤها المؤهلون، وبرامجها الواعية، فقد

تضمنت مناهجها لمراحل الدراسة الأولى الكثير مما يناسب الطفل، ويرفع مستواه العلمي والأخلاقي والديني، والأدبي بالطبع، بل إن رجال التربية والتعليم كانوا أول من نادى بالإهتمام بأدب الطفل. وإعطائه حقه من التدقيق والتنظيم والتقويم. لما لذلك من أثر خطير على مستقبل الطفل والأمة. وكان التركيز الأكبر على قيم العقيدة والتاريخ والوطنية والعلم، ولولا بعض المداخلات السياسية والمذهبية الموجهة، لاستطاعت المدرسة أن تؤدي دورها كاملاً، وأتت بأعظم النتائج وأروعها، ولقد رأيت اهتمام وزارات المعارف والتربية والتعليم بهذه القضية عن طريق إحتكاكي المباشر، عندما كتبت للطلبة عدداً من القصص أذكر منها رواية (اليوم الموعود) وهي عن الحروب الصليبية، وقصة « رمضان العبور » عن الحرب مع إسرائيل عام ١٩٧٣، ورواية « الطريق الطويل »، وتحرص وزارات المعارف والتربية على تعديل المؤلفات لكتّاب كبار، بل إنها تنتخب لمكتبات المدارس كتباً متميزة، تتفق والسياسة التربوية، وتشكل لجاناً للاختيار، وفق قواعد موضوعة سلفاً.

وهذه شهادة حق..

لكن الأمر الذي تحتاجه المدرسة هو كيف تنَمّي في الطفل الرغبة في القراءة؟؟ إن أساليب التدريس والإمتحانات لعقيمة لاتجعل من الطفل قارئاً ممتازاً، وكثيراً ما تتحول

القصة المقررة أو الكتاب الثقافي (كتب ذات الموضوع الواحد) إلى مادة كالفيزياء أو الرياضيات، ولا يرى الطفل أو الطالب فيها إلا النقاط التي سوف تأتي فيها الأسئلة.. وهذه قضية أخرى جديرة بالدراسة والبحث، ووضع مقترحات محددة شاملة.

- أما الإعلام الرسمي، خاصة في التلفاز والمذياع والصحافة فحدّث ولا حرج، وما أظن أن آفات الإعلام خافية على المستنيرين المخلصين في بلادنا، لأن حرص الإعلام على التسلية والإثارة والتشويق، قد أهدر الكثير من القيم الفكرية والعلمية، وهذا لا يعني أننا ضد القيم الفنية أو الجمالية، فهي أساس لا يمكن تجاهله، لكن الذي نريده هو أن تكون الدماء التي تسري في شرايين الألوان الأدبية الإعلامية، دماءً زكية إسلامية، خالية من السموم والميكروبات، وإلا كان الأمر وخيم العاقبة.

وبعد...

لقد مرّ تاريخ أدب الأطفال بمراحل كثيرة، وتقلب بين أحضان الوثنيات والخرافات والأساطير القديمة، وواكب أحداث التاريخ الكبرى بوقائعها المثيرة، وشخصياتها المؤثرة، وتأثر بالتراث العالمي شرقاً وغرباً، كما كان وعاء للكثير من العقائد والأفكار والسلوكيات الوافدة من هنا وهناك من قدامى الفرس والهنود والرومان والإغريق والفراعنة وغيرهم،

لكن انبلاج فجر الإسلام كان حدثاً كونياً هائلاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني واسعة شاملة.

لقد أرسى الإسلام القواعد والأصول لكل مناحي الحياة فكراً وسلوكاً وفناً. وتوالت عصور الإسلام الزاهرة، وهي تضع في حسبانها حقوق الطفل في الحياة والمال والرعاية والتعليم، ولم تكن الحضارة الإسلامية لتنهض وتترسخ وتؤثر إلا على أيدي الأعلام من رجال العقيدة الذين خاضوا بحار العلم والمعرفة، وأدركوا عن يقين أهمية تربية الطفل تربية صحيحة...

الحضارة يصيغها الرجال المؤمنون الأقوياء.

وتنميها وتحرسها العقيدة الصحيحة...

ولا يمكن ـ منطقياً وتاريخياً ـ أن يعلو شأو أمة، أو تسود حضارتها إلا إذا تربى أطفالها في مناخ صحي سليم.

ألم نقل ـ بادىء ذي بدأ ـ أن قضية الطفولة دائماً وأبداً تكتسب أولوية مطلقة؟؟؟

أدب الأطفال بين الهدف والوسيلة

أدب الطفل عمل إبداعي بطبيعته، وحيثما يكون الإبداع توجد صعوبات في الوصول إلى ذلك، لأن الشكل الفني المكتمل أو المقارب للإكتمال يحتاج إلى خبرة ودراية وموهبة، وإلى إلمام عميق بالمواصفات الإبداعية المختلفة، كما أن أدب الطفل ـ في الوقت نفسه اختزال للثقافات والمفاهيم والقيم والطموحات المستقبلية، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن طريقة الإيصال للطفل هي بحد ذاتها ـ كما يقال ـ عمل تربوي، يتطلب تفهماً كاملاً لنفسية الطفل وظروفه وإمكاناته المختلفة.

والهدف من الكتابة للطفل ـ كما تقول ليلى سالم [١] ـ في دراستها هو:

١ ـ تسلية الطفل.

٢ ـ إعلامه وتعليمه.

٣ ـ المزج بين الاثنين (التسلية مع الإعلام والتعليم).

---

(١) دراسة قدمت للمؤتمر العام الرابع عشر للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب بالجزائر مارس سنة ١٩٨٤.

والتسلية البحتة مرفوضة، لأن الأدب بصفة عامة لم يكن مجرد تسلية في أي عصر من العصور.

وأدب الطفل يجب أن يحقق أمرين: أولهما مساعدة الطفل على وعي معنى الحياة، وثانيهما مساعدته على وعي ذاته وعلاقته بالآخرين، والمقصود بوعي معنى الحياة، الإحساس بها وبقيمتها وبأنها جديرة بأن تُعاش، وفق مقاييس العطاء والسعادة، وفي إطار قيم بناءة ايجابية، ومن البديهي أن هذا الوعي لا ينبثق تلقائياً، كما لا يتولد مكتملاً، بل يحتاج إلى تفاعلات وتجارب وخبرات، ويسير في عمليات متطورة مستمرة، وفي إطار هذا المفهوم يصل البحث بنا إلى:

١ - أن التعليم هدف من أول أهداف أدب الأطفال.

٢ - وأن أسلوب الاتصال هو الأسلوب غير المباشر في غالبيته.

فالوعي عملية شاملة ليس بحالة الذهن وحده، بل بمجمل شخصية الطفل بما فيها: الذكاء، والخيال، وكل الجهاز الإنفعالي والعاطفي، وبديهي أن التعليم المجرد يتوجه للذهن فقط، ويهمل الخيال والإنفعال. فإذا علمنا الطفل أن ١ + ١ = ٢ تكون بذلك قد أفهمناه واقعة علمية مجردة، أو رياضية بحتة، لا دور للخيال أو الإنفعال فيها. أما إذا قلنا له: «... كانت الأم تجري، والدموع في عينيها، وتصرخ في لوعة... ولدي.. ولدي.. من منكم رأى ولدي؟؟ لقد

عدت من الخارج.. وسط الأمطار.. والليل جاء.. ولم أجد ولدي بالمنزل..».

إذا قلنا للطفل ذلك فإن الأمر يختلف تماماً، فإنه يدرك ما تعانيه الأم من خلال دموعها ولهفتها على ولدها، وخاصة أن الليل قد أتى، والمطر يتساقط، وينفعل الطفل ـ وهو يسمع أو يقرأ القصة، وينطلق خياله إلى ما وراء الكلمات، ويتصور ذلك الطفل الضائع وهو يقاسي الظلمة والبرد والمطر والوحدة، وهل سيداهمه وحش أو ينشق الليل عن شبح، وكيف سيجد طعامه، وقد يفكر الطفل القارىء في عديد من الإحتمالات، فمن يدري قد يجد الطفل التائه إنساناً ذا قلب طيب يأخذه إلى بيته ويحميه من الأخطار.. وهكذا...

ويصل بنا البحث أيضاً إلى أن الخيال أمر لا يمكن إهماله في الكتابة للطفل، فالخيال بما فيه من شاعرية واتساع، هو وسيلة من وسائل الإبتعاد لحد ما عن التحديد والمباشرة البحتة، وهذا يثري الإنفعال والتأثر، كما يثري التجربة الإبداعية، ومن ثم يمكننا القول بأن «الإيحاء» بالقيمة والمعنى من خلال جو خيالي وشاعري، يجعل الطفل ينفعل بشكل تلقائي، ويتمثل ما يقال، ويمكننا أن نستخدم تلك الوسيلة الفنية أو الإبداعية بالإيحاء للطفل ما نراه ويراه التربويون والنفسيون والدعاة من عقائد دينية، ومبادىء سامية، ومُثل عُليا، لأن الأسلوب «غير المباشر» يتضمن إحتراماً لحرية

الطفل، وبعداً عن القسر الذي يعيق النمو والتفتح...

ولكي نضرب لذلك مثلاً عن الرسول ﷺ، حينما كان يتعامل مع صحابته بكثير من الألفة والتواضع، ويشاركهم في أعمالهم، ويتحمل معهم الأعباء، دون أن يميز نفسه بشيء خاص، نقول إذا أردنا أن نؤكد ذلك للأطفال، فنستطيع أن نقدمه لهم من خلال حادثة أو واقعة جرت فعلاً، فنقول لهم إن الرسول وصحابته اجتمعوا في مكان ما، وجاء وقت الطعام، وأراد الرسول أن يوزع العمل، فقال واحد من الصحابة: «عليَّ ذبح الشاة، وقال آخر عليّ سلخها، والثالث: عليّ طبخها... وهكذا إلى أن جاء دور الرسول فقال: وأنا سأجمع الحطب»... وذلك أشق ما في العملية.. فالطفل إذن يتعلم من سرد الواقعة، ويتأثر بها، أكثر مما يتعلم ويتأثر بقولنا المجرد: أن الرسول كان متواضعاً أليفاً يشارك أصحابه في تحمل المسئولية، ولا يركن إلى الكسل أبداً..

إن «الرؤية الطفلية» يحكمها منطق خاص، حدوده أرحب من الواقع، وأبعد مدى، وأكثر خصوبة..

والقصص الخيالية تفتح أبعاداً شاسعة رحبة وجديدة أمام مخيلة الطفل، والطفل يتأثر بها تأثيراً كبيراً، من غير أن يعرف النتائج أو الأسباب عقلياً، والمخيلة ـ وما تشيعه من سحر ـ قادرة على التأثير وعلى نمو الوعي بشكل لا تضاهيها فيه أية قدرة أخرى.

أما موضوع وعي الطفل نفسه وعلاقته بالآخرين، ومراعاة الأدب لهذا الجانب الهام، هو قضية أساسية، لماذا ؟؟ لأن ما نكتبه للطفل يجب أن يساعده على فهم نفسه بشكل أفضل، وفهم الآخرين، وإنشاء علّاقات إيجابية معهم، لأن الطفل بحاجة إلى الرؤية الواضحة لمخاوفه وتطلعاته، وإلى تهدئة صخب انفعالاته، وإلى وعي مشاكله وصراعاته، وتلمس حلولها، وإلى تجاوز الحدود الضيقة لوجوده المتمركز حول ذاته، وبذلك يمكن للطفل أن ينتقل من وجود «تبعي» متأزم ومشحون برغبات طفولية، إلى وجود مستقل ـ لحد ما ـ أكثر إرضاء وملاءمة لنفسه.. لأن كتَّابنا في معظمهم لا يعطون دراسة نفسية الطفل حقها من الشمول والتعمق، فعالم الطفل غريب عجيب، يحتاج إلى الإكتشاف والتجول الدائب...

وما أكثر الكتابات التي تهمل «الصراع الداخلي» لدى الطفل، وهو صراع موجود ولا مفر منه، ويشكل جزءً أساسياً من نفسية الطفل، وواجبنا أن نجعل الطفل يعي هذا الصراع، ويسيطر على العوائق، ونقدم له حلولاً يستطيع أن يفهمها [١]...

والآن نتساءل: كيف تكون علاقة الطفل نفسياً بأبطال القصص التي يقرؤها أو يسمعها ؟؟

---

(١) نفس المرجع السابق.

إن الطفل يتعاطف مع شخصيات بعينها يراها في القصة، شخصيات تستحوذ على مشاعره، وتشد انتباهه، وتمتلك إعجابه، وهي شخصيات لا بد أن يتوفر فيها الإقناع والصدق الموضوعي والفني، ويحدث لون من «الوحدة» أو «الإندماج» مع هذه الشخصية أو تلك، ويتخذ الطفل منها قدوة ومثلاً يحتذي به، ويحاول «تقليدها» في أقوالها وحركاتها وسلوكها وسكناتها، ويتصورها بخياله تصوراً مثالياً.. وبهذا الإندماج أو الوحدة مع بطل القصة يؤسس الطفل شخصيته ويبنيها.. بل ويختار ما سيكون... وهكذا تتطور شخصيته خلال اندماجاته واختياراته.. ومن ثم يبدأ في رسم تصوره لمستقبل حياته... ويخطو خطواته المتسقة نحو النضوج...

ويجب أن نلاحظ إزدواجية الخير والشر في الحياة، الحياة ليست خيراً محضاً أو شراً محضاً، إنها مزيج من هذا وذاك، ولا يصح أن نخدع الطفل بأن نجعله يعيش في وهم كاذب، ومن الأفضل تربوياً أن يعرف اختلاط الشر والخير في الحياة، لكننا نستطيع بوسائلنا أن نجعله يتخذ موقفاً إيجابياً، ويندمج مع الشخصيات الخيّرة ويقلدها.

لكن البعض يرى «ألا نصدم الطفل بما هو سيء أو ظالم أو مشين في تراثه»[1] وذلك حتى لا تهتز ثقة الطفل بماضيه

---

(١) عبدالله أبو هيف - دراسة - جريدة الاتحاد الإمارات عدد ١٩٨٤/٥/١٧.

الزاهر ، وتكفي الإشارة إلى السلبيات وانهزامها وقهرها . وإلى تغليب قوى الخير والحق والعدالة .

وإذا كان الطفل يبدأ حياته بالتقليد لمن حوله ، إلا أنه ينتقي ما يُغذي هذه الشخصية الناشئة ، حتى لا تقف عند المثال المقلَّد ، فتكون المطالعة ـ كما قلنا ـ من أهم الوسائل التي يعتمدها الطفل ، حيث يخرج بها من الإطار الضيق ، وللمطالعة تأثيران :

١ ـ شعوري.
٢ ـ لا شعوري.

والتأثير « اللاشعوري » هو الأهم في سياق تكوين وتنمية شخصية الطفل ، إن الإنسان الراشد أو الكهل لديه درجة معينة من النضج إكتسبها خلال ممارساته الحياتية والذهنية ، هذا النضج يمكنه من الحد من هذا التاثير اللاشعوري ، فيصبح من الذين يغلبون العقل على العاطفة ، فلا يندفع مثل الطفل إلى الاقتناع بما يطالعه في الكتب أو يسمعه من الكبار .

ومجال التأثير اللاشعوري في أدب الأطفال تحيل مكانة أولى لا شك فيها ، وخطورة الآداب والفنون ـ دائماً وأدباً ـ أنها تتسلل إلى هذا المجال وتفعل فعلها ، وما دام الأمر كذلك ، فإن الذين يكتبون لأدب الأطفال عليهم واجب أساسي وهو الإلمام بماهية هذا الحيز ـ حيز اللاشعور ـ بالنسبة للطفل ،

وإعطاؤه حقه من الفهم والتدقيق، حتى لا يتسلل إلى شخصية الطفل من خلاله عوامل سيئة تؤذي تكوين الطفل، وتعيق من تطور شخصيته ونموها ونضوجها [1].

ويؤكد الدارسون فيما يشبه الإجماع أن أدب الطفل ليس أدباً ترفيهياً فحسب، بل ينبغي أن يكون له دور تربوي، كما يؤكدون على ضرورة التلاؤم والتكامل بين التأثير الشعوري والتأثير اللاشعوري في أدب الأطفال، وضرورة مراعاة كل من الجانبين الأدبي والنفسي، وفي حالة الترجمة أو الإقتباس لا بد أن نراعي خصائص كل حضارة، وألا ننقل ما يناقض قيمنا التربوية الإسلامية، أو يبعث فيها التميع والترقيع، أو يفقدها سماتها المتميزة، وملامحها المحددة.

★ ★ ★

قد أشرنا في الفصل الخاص بوظيفة أدب الأطفال في ضوء الإسلام إلى هذه الوظيفة بصورة تفصيلية لحد ما، وأدب الأطفال ـ طبقاً للقواعد الموضحة، والأساليب المتبعة التي ثبتت صلاحيتها وجدواها ـ هو الوسيلة الفعالة لترجمة الأهداف والغايات.. وبذلك نستطيع المساهمة بهذا الأدب في تكوين الشخصية السوية القادرة على ممارسة دورها البناء في

---

(١) عبد المجيد عطية ـ بحث عن «الكتابة للطفل في الوطن العربي» ـ المرجع السابق.

إثراء الحياة، والنهوض بها، وإسعاد الفرد والمجتمع.

والأمر هنا في غاية الخطورة.

إن الأدب وسيلة لا غاية.

وقد تشتط قلة خارجة عن ذلك التصور، لكن القضية في ضوء الإسلام لا تحتمل ريبة أو ترددا، لأنها شيء يرتبط بمنهج المسلم، ولا يمكن الإنحراف عنه..

نعم الأدب ـ بل الفن كله ـ وسيلة لا غاية..

وما يزعمه دعاة «الفن للفن» ومن دار في فلكهم من أن الفن ـ ومنه الأدب ـ غاية في حد ذاته، إنما هو ضرب من الجمود لا يصمد للواقع، ونظرة سريعة إلى تاريخ الآداب والفنون مُنذ القدم، وحتى عصورنا هذه تؤكد ما نذهب إليه من أن للأدب وظيفة يؤديها لإثراء النفس والحياة بالتجارب والمعارف والجمال، وما مثل دعاة «الفن للفن» إلا كمثل الذين يقولون «إن هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين»، فهي وثنية من نوع آخر، إتخذت لنفسها مجالاً وثنياً خاصاً هو الفن، فليس بعده شيء.. وهي عبثية في شكل آخر غير الأشكال المستحدثة..

ولا يصح أن ننسى أن نبل الغاية يستلزم أيضاً طهارة الوسيلة.

إن الذين يبالغون في تصوير الشر والفاحش والسيء من

الأوضاع بحجة التغير منها، والبعد عنها، إنما يزينون لضعاف النفوس طرافة التجربة، وقد يوحون محاولة تقليدها، وهو أمر بالغ الخطورة، وخاصة بالنسبة للأطفال، فالإشارة إلى الشر لا تعني الإيغال فيه، والغوص المغري في تفاصيله، فقوة الإرادة عند الطفل ـ الذي لم تكتمل تجربته، ولم تتحدد مواقفه ـ ضعيفة ناقصة، وقد يجره ذلك إلى متاهات وإضطرابات تلوث صفحته البيضاء، وتوقعه في كثير من الحيرة والبلبلة، لكن هذه كلها أمور يمكن ضبطها بمقاييس التجربة الإسلامية، ونتائج الدراسات النفسية والتربوية التي توصل إليها المخلصون من العلماء.

إن الذين يندفعون إلى الكتابة للطفل، دون إدراك لعظم المسئولية، مثلهم كمثل الذي يقتحم حقل ألغام، ولا يعرف الممرات الآمنة التي يستطيع إجتيازها بسلام، ولا أظن أن العقلاء يرتكبون هذه الحماقة القاتلة.

قصص الأطفال

يقول الله في كتابه العزيز : ﴿ .. فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ . وهو أمر إلهي للرسول الكريم الذي أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، حتى أصبح بحق كما قيل عنه ﷺ « كان خلقه القرآن » .

لقد إحتفى القرآن الكريم بالقصة، وجعلها باعثاً على التفكر والتدبر، لأنها واقعة حية، صادقة التعبير، قوية التأثير، عظيمة المقصد، تتحرك فيها الشخصية والحدث، ويتجلى فيها الصراع الأبدي الخالد، بين الخير والشر، وبين المؤمنين والكافرين، وبين الرذيلة والفضيلة، وبين الإنسان والشيطان، الشيطان بشتى صوره ومغرياته، والإنسان بقوته وضعفه، باستقامته وعوجه.

وإذا كانت القصة تجربة حية، مقتطعة من الحياة المتحركة المتفاعلة، فإنها تشد الإنتباه، وتعمل الفكر، وتحرك المشاعر، ويشعر المتلقي ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ بأنه يعيش وسط

الحدث، ويتمثله ويعايشه إلى حد كبير، بل ويتخذ موقفاً، بناء على قناعة خاصة استلهمها من التجربة المتواجدة في القصة، واتخاذ الموقف يتبعه سلوك وانعطافات هنا أو هناك، ذلك هو الذي يمكن فهمه فيما ورد من نصوص قرآنية كريمة حول القصة بصفة عامة.

وتتميز القصة القرآنية عما سواها بثبوت الوقائع المسرودة، وعظمة الأداء المعجز، والأسلوب الذي لا يبارى، كما تتميز بإقرار النتيجة أو العبرة صراحة، وهو أمر تخالفه معظم مدارس القصة الغربية المعاصرة، إذ لا تحفل بإثبات أو تبيان الهدف أو الغاية من القصة حتى تترك المتلقي يفهمها وحده، أو يستنتج منها ما يشاء طبقاً لمقدرته ومزاجه وهواجسه، ذلك كنوع من الإثارة والإمتاع والمشاركة، وذلك ما جعل عالماً كبيرا كالشيخ محمد متولي الشعراوي يقول أن القصص القرآني قصص متميز له قداسته وتفرده، وليس مثل القصص الذي نقرؤه اليوم، وخير للنقاد أن يطلقوا كلمة القصص على ما ورد في القرآن الكريم وأحاديث الرسول، وأن يسموا القصص الحديث «بالخياليات» مثلاً أو ما شابه ذلك، وليس من قبيل الصدفة أن تكون كلمة الرواية باللغة الأجنبية هي ROMANCE، ومعناها الحقيقي هو الخيال..

إن حقائق الدين تلتزم بالوضوح والتحديد، فكان منطقيا وطبيعياً أن تأتي القصة في القرآن سلسلة واضحة، لا غموض

فيها ولا تزيُّد أو مبالغة، وتتبعها ـ أو تسبقها ـ أو تأتي خلالها ـ النتائج أو الهدف أو الغاية منها.. وهو أمر أليق ما يكون بالنسبة لعامة العقول والأفهام في المجتمع، فمستويات الناس العقلية متفاوتة، وإمكاناتهم الثقافية والاستنتاجية متباينة، والأمر أمر عقيدة، لا مجال فيه للتخيلات الجانحة، أو الأهواء الشخصية، أو التأويلات الشاردة، إنه دين، نزل به جبريل على محمد ﷺ، ويجب أن يصل إلى العباد في جلاء ووضوح، أما القصص المعاصر، فيخاطب فئة بعينها من المثقفين، ويتناوله نخبة من النقاد الأكاديميين، ويطبقون عليه قواعد معينة في التقويم والتقييم، ومدارس النقد كثيرة، منها ما يرتبط بالانطباعات التي تتركها القصة لدى القارىء، ومنها ما يتصل بالقواعد الخاصة بمذهب معين كالواقعية أو الإبتداعية (الرومانسية) أو الرمزية.. ألخ، ومنها ما يلجأ إلى التحليل الفني أو الإجتماعي أو التاريخي أو البيولوجي للشخصيات والأحداث والصراعات.. وهنا نرى القارىء أو المتلقي يحار بين غابات كثيفة مظلمة من النظريات والإفتراضات، كما يتباعد النقاد في أحكامهم بالنسبة لرواية من الروايات تباعداً غريباً، فتأتي أحكامهم متناقضة متضاربة، وهذا على النقيض تماماً من القصص القرآني الجلي القوي النقي، والذي يحتفل بالجزئيات الهامة، والأمور الكلية الأساسية، والنتائج التي يجب الإحتفاء بها، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين..﴾

أليس من الملفت للنظر اليوم، أن يأتي علماء التربية والنفس بعد قرون طوال من نزول القرآن، ليؤكدوا هذه الحقائق الثابتة ألا وهي:

أولاً: القصة ذات أثر بالغ في التنشئة والتربية.

ثانياً: القصة الناجحة تزود الطفل بمختلف الخبرات الثقافية والوجدانية والنفسية والسلوكية.

ثالثاً: القصة تفتح الآفاق أمام الطفل، وتثري خياله، وتنمي مهاراته وإبداعاته، وتمده بطاقة روحية ونفسية وفكرية كبيرة.

رابعاً: قصة الطفل يجب أن تكون واضحة، منطقية، سلسلة بعيدة عن التشتت، خالية من تراكم العقد، مفهومة اللفظ والمعنى والسياق.

خامساً: وهذا هو الأهم، أن تكون واضحة الهدف.

سادساً: أن تخلو مما يبعث الخوف والشك واليأس والتردد في نفوس الأطفال.

سابعاً: أن تميل بهم إلى جانب الخير والفضيلة والثقة والإيمان، وأن تؤكد لهم إنتصار الخير على الشر،

والإيمان على الكفر، والأمل على اليأس.

ثامناً: أن يستخلص منها الطفل ـ شعورياً أو لا شعورياً ـ قيمة أو فكرة أو معتقداً، ينفعه في حياته، ويثبت في نفسه الآداب الأخلاقية، المنبثقة من دينه أو عقيدته.

★ ★ ★

والنظر إلى القصص القرآني أو الديني يجعلنا نؤمن أعمق الإيمان بأهمية «القصص الحق» الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، وعلى أنبيائه المرسلين من قبل، ونظرة إلى الآداب العالمية كلها قديمها وحديثها تبرز لنا أهمية القصص الديني في تربية الأطفال، فنرى مثلاً في انجلترا ـ عندما بدأت مدارس الأحد ـ كتّاباً مشهورين للقصص الديني للأطفال مثل الكاتبة «حنا مور» والكاتبة «سارة تريمور» (١٧٨١ م) أما التراث الإسلامي فقد إكتظ بالكثير من هذه القصص في حقب التاريخ الإسلامي المختلفة، وهو كما قلنا أمر شائع وقديم، نراه في مخطوطات قدماء المصريين من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، ونراه في المسيحية واليهودية، وفي البوذية، وفي أساطير الإغريق أو اليونان، ولدى البوذيين والديانات الغير سماوية أو الوثنية التي سبقت أو أعقبت الرسالات الإلهية..

القصص القرآني هو القمة، لتكامله وسلامته من الخرافات

والتحريف والتزييف، ولتضمينه الحكمة الواضحة، أو العبرة الصريحة، ومن الأمور البينة، أن الأمهات والعجائز في العالم الإسلامي، يروين للأطفال منذ الصغر قصص فرعون وموسى، ونوح والطوفان، ويوسف وامرأة العزيز، وبقرة بني إسرائيل، وأهل الكهف وأصحاب الأخدود، وإبراهيم عليه السلام والأصنام والنار، ومحمد عليه الصلاة والسلام واليهود وكفار قريش، وقارون وفرعون وهامان، ويستمع الأطفال لهذه القصص وغيرها، ويطربون لها، ويعيشون في أجوائها، فتثري خيالاتهم وأفكارهم، وتقوي من عقيدتهم، وتزودهم بطاقة هائلة من القوة والعزم والإيمان، وتأخذ بأيديهم إلى طريق الخير والعمل والصدق والفضيلة..

وقصص الأطفال قديمة قدم البشرية.. ويبدو أنها ضرورة، فهي أبسط ألوان الحديث للطفل، ولمن لم يؤتوا القدر الكافي من الثقافة، ومع أن التاريخ لم يترك سجلاً قديماً لقصص الأطفال، إلا أن الدراسات العالمية أجمعت على وجود هذا اللون الأدبي بين القبائل البدائية والمجتمعات المتحضرة على حد سواء، وقد أشرنا إلى «البرديات» الفرعونية التي اكتشفت حديثاً، مع أنها مكتوبة منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، كما جاء في الكتاب الذي ترجمه الروائي نجيب محفوظ، ويعلق الدكتور على الحديدي على ذلك في كتابه القيم قائلاً: «ويلاحظ أن الدين وما نبع عنه من

أساطير كان الملهم الأكبر لخيال المصريين القدماء ، وكان أهم حافز لخلق الأحداث وتأليفها ، وبذلك كان الدين معلمهم الأول لفن القصة والرواية حتى تمكنوا فيها ، وصارت لهم القدم الراسخة .. »[1] .

ولم يقف القصص الديني للأطفال عند حد قصص الأنبياء وقصص القرآن والسيرة والأحاديث الصحيحة ، بل تعداه إلى قصص واقعي معاصر يستلهم أفكاره من الواقع ، ويستنبط قيمه من العقيدة الدينية ، ويلتقط أحداث من الوقائع اليومية الجارية ، وهكذا تسللت قيم الديـن والعقيـدة إلى « القصـص الواقعي » الذي يقدم للأطفال في كثير من المنازل والمدارس والكتب الخاصة بهم، وهذا الرأي لا يمنع من وجود آثار لأدب الأطفال ـ مترجمة أو مقتبسة أو مؤلفة ـ قد انحرفت عن ذلك ، ودسَّت الكثير من القيم الفاسدة المدمرة إلى قصصهم الواقعي ذلك .

وكانت قواعد « قصة الأطفال » في الأزمنة القديمة ترتجل طبقاً للتجربة أو الخبرة عند الراوي أو الراوية ، ولم يكن لها نظرية متكاملة ، وأصول راسخة متفق عليها ، كان الشرط الأساسي فيها أن تكون مفهومة لدى الطفل ، وأن تكون بسيطة ، وتهدف إلى تعليمه شيئاً وإلى إمتاعه ومؤانسته أو

---

(١) ص ٢٧ من أدب الأطفال.

إدخال البهجة والسعادة على نفسه كي ينام أو يهدأ أو يستجيب لرجاء من يشرفون على شأنه، أو لتلقينه عقيدة من العقائد، وخاصة ما يتعلق بمعتقدات قومه وبطولاتهم ومفاخرهم.

وبدأ الإهتمام والتخصيص لقصص الأطفال على أسس وقواعد في أوروبا في القرن الثامن عشر تقريباً، واستفادوا كثيراً من تراثنا العربي في القصة وخاصة كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي ترجموه، وكذلك كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقل إلى لغاتهم أيضاً، لكن أدب الأطفال العربي لم يبدأ الاهتمام به إلا في أواخر القرن التاسع عشر، ولم يقف على قدميه إلا في العشرينيات من هذا القرن العشرين..

ولنتساءل الآن عن العناصر التي تلزم لتأليف قصة للأطفال... إنها في الواقع عناصر لا تخرج عن مثيلاتها في القصة كعمل أدبي، مع مراعاة ما يناسب الطفل عند تطبيق القواعد، ولكي نضرب لذلك مثلاً، فإن العقدة أو الحبكة من ضرورات القصة بوجه عام، لكن الطفل لا تناسبه إلا العقدة الواحدة المبسطة دون تشعبات، بينما الكبار، يقدرون على فهم العقد المركبة، وهناك أيضاً إختلافات تتعلق بالشخصية والحدث والسرد، وبالتعبير المباشر وغير المباشر، وبالألفاظ والصور البيانية والبلاغية.. وأهم عناصر قصة الأطفال هي:

١ - الحدث

هو عبارة عن مجموعة الوقائع المتتابعة المترابطة، والتي تسرد في شكل فني محبوك مؤثر، بحيث تشد إليها الطفل دون عوائق أو تلكؤ، فتصل إلى عقل الطفل في إنسجام ونظام، فلا ينصرف عما يقرأ أو يسمع، أو تشتت ذهنه..

الحدث إذن جزئيات يضمها نسيج واحد، أو إطار متماسك، يوحي بالصدق والإقتناع والمتابعة، ومن ثم لا يمكن أن يكون الحدث بناءً جامداً ثابتاً، ولكن لا بد وأن يتسم بالحركة الحية والتفاعل، مع ما قد ينتج عن ذلك التفاعل من حرارة أو ألوان أو تغيرات مفهومة ومنطقية.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن التأثير لا يقع في مجال العقل وحده، ولكنه يقفز إلى الوجدان والنفس. ويصبح الطفل في حالة نفسية خاصة تثري كيانه كله بدنياً وروحياً..

وعلى كاتب القصة للطفل، ألا يغرقه في التفصيلات الكثيرة، والأحداث الفرعية الطويلة، كما لا يصح أن يدفع به إلى الأحداث الغامضة الغير مفهومة أو مبررة، وبذلك لا يبعث في نفس الطفل الضيق أو الملل، كما أن على الكاتب أن يحسن إختيار التجربة الحياتية المقنعة على أسس علمية سليمة، حتى لا تضار نفسية الطفل وقيمه السلوكية، ومعتقداته الصحيحة، ولا يشترط أن تكون الأحداث الجذابة مرتبطة

بـالإغـراب والخروج الصـارخ على الواقعـي أو المألـوف أو المشهور، وبالذات في مجالات البشـاعـة والرعـب، وهـذا لا تتناقض مع هدفنا الأكيد في إمتاع الطفل بالخيال الخصب الخلاَّق، وتنمية ذلك الخيال وإثرائه.

٢ - السرد

ونقصد بالسرد كتابة القصة أو روايتهـا للطفـل، وهـي طريقة إستخـدام القـامـوس اللغـوي في عـرض الحدث أو الوقائع، وهنا نؤكد مرة أخرى على أهمية إختيار الألفاظ المناسبة لسن الطفل الذي نكتب له، فـاللغـة ذات الألفـاظ الصعبة او الغريبة التي لا يفهمها الطفل تعوق عملية التلقّي والفهم والعيش في قلب الحدث، كما تعطل إنسيابية التمثل والتخيل، كذلك فإن الألفـاظ ذات الدلالات المعنـويـة أو التجريدية تربك الطفل، وتورثه الحيرة، وتوقعه في الغموض، ولهذا فإن الكلمات ذات الدلالات المجسَّدة، والتي ترمز إلى أشياء يعرفها الطفل في بيئته الخاصة أو العامة هي التي تناسبه ولا يستطيع الطفل أن يتفهـم «التجـريـدات» إلا في سـن متأخرة، بعد أن تنمو مداركه، وتتكثف خبراتـه، وتـربـو ثقافته..

أمر آخر وهو أن كاتب قصص الأطفال، وخاصة لمراحل ما قبل العـاشرة أو الحاديـة عشرة، لا يصـح أن تستهـويـه

الإستعارات والكنايات والأمور البلاغية الأخـرى، فتطـول العبارات، وتتزاحم الصور، فيصعب الفهم على الطفل، وتتعثر خطاه في طريق الإستيعاب والفهم والإستمتاع، ولا شك أن جمال اللغة عملية تقديرية ولها إعتبارات خاصة عندما نكتب للأطفال، في مراحل نضوجهم العقلي المتتابعة...

واللفظة في السرد لا تلقى هكذا جامدة منبَّتة كقالب من طوب، ولكن لا بد أن تواكبها لفظات مساعدة، أو جمل موحية تشحن سياق اللغة أو تعبيرها بالحركة، وتُثريه بالتخيل والتجسيد، فإذا قلنا «حضر احمد» فان مجرد الحضور هكذا لا يوحي إلا بفعل بسيط لا يلفت النظر عادة، وإنما قلنا «حضر أحمد وهو يبكي.. أو والدم يسيل من أنفه.. أو وهو يرتجف أو يرتعش.. إلخ» فإننا بذلك قد أضفنا حركة وحيوية، وشغفاً بالمتابعة ومعرفة المزيد، وهو ما يسميه النقاد «باستخدام العنصر النفسي» في السرد، فيثريه ويخرج باللفظة عن دائرة التعبير الأجوف العاري.

أما الجديد عن الألفاظ أو المصطلحـات، فـإنها تضـاف تدريجياً وبجرعـات مستساغة مقبولة، طبقاً للقاموس المعتمد، والدراسات المتخصصة انتي تراعي نمو الطفـل العقلي والنفسي، وهي ضرورة لإضافة أرصدة جديدة لحصيلة الطفل من اللغة والأفكار والمعاني.

ومن الخير تجنب الألفاظ البذيئة، أو العبارات المقذعة، أو الكلمات التي تخدش الحياء، وتوحي للطفل بأمور وسلوكيات لا تتفق والاخلاقيات التي نريد أن نربيه عليها، ويكفي الطفل ما يسمعه في الشارع أو الواقع الأليم من كلام جارح، وممارسات ضارة، تنبو عن الذوق، وتبعث الأسى في النفوس.

وإذا كانت هناك وسائل عدة للسرد الفني، كالوسيلة المباشرة أو الذاتية أو الوثائقية، إلا ان السرد المباشر هو الأليق بالنسبة لقصص الأطفال، إذ يعطي الكاتب حرية في الحركة، وانسيابية في التعبير، وشمولية في رسم الصورة، لأن المؤلف يبدو وكأنه راوية يسرد من الخارج. ويعالج الأمر بشيء من الموضوعية النسبية، وذلك هو الطريق الذي اتبعه غالبية كتاب القصة سواء الذين يكتبون للأطفال أو الكبار.

٣ ـ البناء

لكي نقيم بناءً ـ منزلاً مثلاً ـ لا بد من توافر عددٍ من المواد كلبنات البناء والأسمنت والرمل والحصى (أو الزلط) ولا بد من الأخشاب والحديد وما إلى ذلك من الأمور التي تدخل في هذه العملية، بناء على التصميم الذي وضعه المهندس المختص، ولا بد من أسلوب معين. يؤدي علمياً كي نبلغ الهدف، ولا بد من التنسيق والأصباغ المناسبة، كذلك القصص.

وقصص الأطفال لا يناسبه التعقيد الزائد المركب، وكاتب قصة الأطفال يتخير وقائع معينة يجمع بينها في نسق وتسلسل خاص، حتى تأتي مفهومة وجميلة ومؤثرة وجذابة، وحتى تستطيع أن تصل إلى الهدف المطلوب.

وتبدأ قصة الأطفال مما يمكن أن نسميه البداية أو المقدمة، وتكون موجزة وموضحة لما سيأتي بعدها، ثم تتابع الوقائع بطريقة منطقية: كل واقعة في مكانها المناسب، وفي حيزها المعقول، ويتحرك الأشخاص عبر هذه الوقائع حركة حية هادفة، تخدم الهدف الذي من أجله كتبت القصة، وتظل تنمو وتنمو حتى تصل إلى القمة، وهي النقطة الأشد تعقيداً وإثارة، ويتبع ذلك لحظة التنوير التي تفتح الطريق إلى النهاية السعيدة أو المأساة.

وقد يعتمد الكاتب على توالي الأحداث توالياً عضوياً، بحيث تكون مرتبطة ببعضها تمام الارتباط، وقد يكون اعتماد الكاتب على الشخصية الرئيسية في مسيرتها من البداية للنهاية، مع النظر إلى الوقائع أو الأحداث كأشياء مكملة، وهذا يحدث في قصص البطولات أو المغامرات الفردية.

ويميل بعض النقاد إلى تبني «النهايات السعيدة» بالنسبة للأطفال، كما يؤكدون على أهمية إبراز الهدف بطريقة واضحة وحاسمة، دون إغراق في الوعظ أو الشرح، وبذلك

تتغلغل القصة بعناصرها في عقله ووجدانه ولو بطريقة تلقائية أو لا شعورية.

ولعله من نافلة القول أن نقرر عدم صلاحية بعض القصص الذي يغلو في الرمز، أو يغرق في التحليل النفسي، والداعيات التي تحدث في اللاوعي، والإنسياق وراء الصور الشعرية المعقدة في أسلوب القصة، والإنخداع بمدارس أدبية تغلب عليها الطبيعة الفلسفية. هذه أو تلك لا تناسب مستوى الطفل أو مثله التي ننشدها.

فكما أن الطفل يتقبل الألوان الأصلية كالأحمر والأصفر ولا يستطيع استيعاب الألوان المختلطة وأسماءها الصعبة، فإن نفس الشيء يحدث لديه بالنسبة إلى لوعة القصة التي يقرؤها أو يسمعها.

وإذا كانت عقلية الطفل لا تستسيغ التحاليل النفسية الصعبة، إلا أننا يجب أن نتفهم نفسيته على أسس تجريبية وعلمية: وأن نستفيد من ذلك ـ كمؤلفين ـ في حمايته من الإضطرابات النفسية.

٤ ـ الشخصيات

تلعب الشخصيات في قصص الأطفال دوراً هاماً، باعتبارها نموذجاً يُحتذى، أو لكونها مثلاً يثير الرفض والتقزز، فالقصة قد تحفل بشخصيات « ثابتة » أو شخصيات « نامية ».. والنموذج الثابت من الشخصيات قد يتصف بأقوال وأفعال وتحركات تبعث على الرضى أو التفاؤل أو الإتباع، هذه هي الشخصيات القدوة أو المثل، وهي كثيرة في سير الصالحين والأبطال والمجاهدين في سبيل الله، والمدافعين عن العرض والشرف والأرض والعقيدة، كما تتمثل في الشخصية الشغوفة بالإكتشافات العلمية والرحلات والمغامرات الخيرة، التي تجاهد في سبيل المضطهدين والمحتاجين والضعفاء، والطفل ينظر إلى مثل هذه الشخصية نظرة تقدير واحترام وحب، ويحاول أن يقلدها.

وهناك أيضاً ـ على النقيض من ذلك ـ الشخصية « الثابتة » أو الجاهزة، التي تلجأ إلى الدس والخديعة، أو التي تميل إلى الكسل والتراخي، وتستسلم للفشل، وتبدو مثل هذه الشخصيات أمام الطفل مقيتة سيئة، وخاصة عندما يكون مصيرها إلى الفشل والضياع وتلقى العقاب. ولذا يكرهها الطفل ويحاول تجنب السلوكيات التي أوجدت تلك المصائر السيئة ومن الضروري أن يحرص الكاتب على توضيح النتائج

الطيبة السارة بالنسبة للشخصيات الخيرة، والآثار والعواقب الوخيمة بالنسبة للشخصيات الشريرة، على ان يتم ذلك بأسلوب أو بآخر دون إضرار بالقيم الفنية أو الجمالية التي اتفق عليها بالنسبة لفن القصة.

أما بالنسبة للشخصية «النامية»، فنقصد بها الشخصية التي لا تثبت على حال واحدة، أو تكون في قالب معين لا يتغير، إن الشخصية النامية تتحول من حال إلى حال، فقد تكون شخصية سيئة، تتعرض لمآزق وأحداث وتجارب عنيفة، فيتلقى الدروس، ويأخذ العبر، وتتغير حاله، ويصبح بعد معاناة إنساناً طيباً وقد تكون الشخصية خيرة في البداية، ثم تتعرض للمغريات المادية والمعنوية فتسقط في ارتكاب الأخطاء، وتستَسلم للشر حيناً من الزمن، ثم تلاقي من المتاعب والندم ما يجعلها تفكر في التوبة والعودة إلى الإستغاثة، أو تقع فريسة للشر بصفة نهائية، وتصاب بما تستحقه من مصائب وكوارث، فيكون في ذلك التجسيد للسقوط مدعاة لكي يتعلم منها الطفل العظات والعبر بأسلوب غير مباشر.

إن رسم الشخصية ـ سواء أكانت ثابتة أو نامية ـ أمر حيوي بالنسبة للطفل، ولذلك يجب أن تعالج بيقظة وحذر، وإلا وصلنا إلى نتيجة تخالف المطلوب من أدب القصة، فقد يعجب الطفل بشخصية قاطع طريق، أو زعيم عصابة، أو لص محترف، وخاصة عندما نضفي على هؤلاء صفات القوة

والذكاء والمهارة وتحقيق الإنتصار ضد الكثرة من المتصدّين، أو يصل ذلك المنحرف إلى هدفه في السلطة والسيطرة والثراء الحرام.

والشخصية ليست إنساناً دائماً، فقد تكون الشخصية حيواناً أو طائراً أو زهرة أو جنياً أو ملاكاً أو شيطاناً، أو شجرة أو نهراً أو جبلاً، وقصص الحيوان والسحر وغيرها تحفل بالمغزى وتهدف للعبرة، وتبرز الحكمة، وهي كلها أمور إيجابية تنفع الناس ـ كباراً وصغاراً ـ في حياتهم العملية، أيا كانت هويّاتهم ومساراتهم، وهذا يبدو واضحاً في قصص «كليلة ودمنة» المبسطة، وبعض قصص «ألف ليلة وليلة» بعد تهذيبها وتبسيطها.

وقد تناولنا موضوع مدى المشروعية في مثل هذه القصص للطفل في مكان آخر..

التشخيص إذن عنصر مهم من عناصر قصص الأطفال، فالحياة من حولنا عامرة بشخصيات لا حصر لها، تتباين في اشكالها وملابسها واساليبها وعلاقاتها وعقيدتها وعواطفها، ونحن في الواقع نتعامل مع هذه الشخصيات، فننفر منها أو نحبها، ونقتدي أو نأنف من سلوكها، المهم أنها تحرك مشاعرنا وأفكارنا، وقد تدفعنا إلى إتخاذ مواقف معينة ازاءها، ولهذا فإن الطفل يتعرف من خلال العمل الفني على

نماذج جديدة من الشخصيات، نماذج تعيش بين ظهرانينا ولكنه لم يكن يفهمها أو يتعمقها، ولم يكن يعرف في دلالتها وتخصصها، ونماذج أخرى قد تكون في مجتمعات أخرى تختلف عن بلادنا، ومن ثم يحصل الطفل الخبرة والثقافة التي تثري فكره وخياله، لأن مثل هذه الشخصيات الحية المتحركة تبعث النشاط في تصوراته، وتجعله يصنع لها صورة ذهنية خاصة. قد تكون أكثر امتاعاً من الواقع، سواء أكانت هذه الشخصيات من الأنس والجن او الحيوان أو الملائكة الأطهار، أو السحرة الأشرار المهم أن يتعرف الطفل على الشخصية ـ أية شخصية ـ من خلال أفعالها وكلماتها ومشاعرها وليس من خلال السرد الأجوف وحده..

٥ ـ الزمان والمكان

إن تحديد الزمان والمكان في القصة ـ كقاعدة عامة ـ يعتبر ضرورة فنية ونفسية، وهي نوع من استكمال الصورة العامة أو الخلفية، وبدون ذلك قد يحدث نوع من التشتت والغموض، لكن الأمر بالنسبة للطفل وقصصه قد يختلف لحد ما، فالطفل في سنينه الأولى قد لا يكون لديه تفهم كامل واضح للزمان، وإن كان إدراكه للمكان قد يكون أوضح من الزمان، ولهذا نرى رواة قصص الأطفال يقولون « كان ياما كان.. في سالف العصر والأوان.. ما يحلو الكلام إلاَّ

بذكر النبي عليه الصلاة والسلام » وهو تعبير يعني الماضي ، دون تحديد دقيق لهوية ذلك الماضي .. لكن الطفل يستطيع أن يميز الليل والنهار ، ثم يتدرج ويعرف أمس وغداً ، ويظل يصعد سلم التدرج حتى يلم بأيام الأسبوع ، وتبقى العصور السحيقة أمر بالغ الصعوبة وخاصة إذا كانت القصة مشتملة على تميز تلك العصور بسمات خاصة ، وطبائع مغايرة ، وقيم مختلفة كثيراً عن قيمنا المعاصرة .

كما يستطيع الطفل أن يتصور المكان « فوق الشجرة » مثلاً أو تحتها ، « وفي الحقل » أو « في المنزل » . وهي أمكنة بسيطة يعايشها ، وعندما ننتقل به إلى جانب قمم الجبال والبحار والسندباد في القصص فإن الأمر يحتاج إلى خبرات أوسع ، وسن عقلي أنضج .

من هذه الزوايا تختلف قصص الكبار عن الصغار ، لكن في مراحل العمر المتأخرة يصبح الطفل أشد جذباً إلى « القصص الواقعي » ويقل إهتمامه بالقصص الخيالي والخرافي والأسطوري وفي هذه المرحلة الواقعية يدرك الطفل بداهة أن الأحداث التي تجري في الحياة ، لا بد وأن تقع « في مكان معين ، وزمان بذاته ، وهي لذلك سترتبط بظروف وعادات ومبادىء خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيها ، والارتباط بكل ذلك ضرورة لحيوية القصة لأنه يمثل البطانة النفسية للقصة ، ويسمى

هذا العنصر «Setting» [1]

وقصص الحيوانات مثلاً، المكان فيها هو البيئة التي يمكن أن يعيش فيها ذلك الحيوان، فليس من المستساغ أن نصوّر حيواناً في منطقة استوائية، مع أنه لا يعيش في القطب الشمالي أو المناطق الثلجية الباردة، وكذلك حيوان الصحراء يختلف عن حيوان البلاد الباردة، وهي حقائق طبيعية يجب أن تراعى حتى لا تختلط الأمور العلمية أو الجغرافية في ذهن الطفل، ويصل إلى نتائج ليست متفقة مع الواقع، ويحلو لبعض الكتاب أن يقدموا قصص الذئاب والأسود والغربان والخيول دونما تحديد لصفة مكانية وزمانية، هادفين من ذلك إلى إبراز المغزى أو العبرة أساساً، وهو أمر يمكن التغاضي عنه في المراحل الأولى من عمر الطفل، لكن كلما كان الالتزام بالبيئة الطبيعية اكثر، كلما كان أفضل.

وهناك أماكن متميزة من الخير أن يتمثلها أو يتصورها الطفل منذ حداثة سنه، مثل مكة ـ المدينة المنورة ـ القدس، ثم الأنهار الشهيرة والجبال، وهناك أيضاً أزمنة فضّلها الله على غيرها. كشهر رمضان وما فيه من آداب معينة، وعصر النبوة وما فيه من طهارة وعظمة وجهاد، ويوم الجمعة وما يحفه من نورانية ومن بركات ونظافة واجتماعات.

---

(١) الأدب وفنونه ص ١٩٤ د. عز الدين اسماعيل.

وعموماً فإن المؤلف النابه، يمكنه أن يوازن بين المتطلبات الفنية لقصص الأطفال، وبين الإمكانات العقلية والاستيعابية لدى الطفل، تبعاً للمرحلة التي يكتب لها. والموضوع الذي يعالجه في قصته.

٦ - الفكرة أو الموضوع

الشكل الفني أو الإطار وعاء، والفكرة أو الموضوع أو المضمون، هي الشيء الذي يحتويه هذا الوعاء، إن أحداث القصّة تمضي وتتفاعل، والشخصيات تتحرك وتتكلم وكأنهم يمارسون حياة حقيقية، لكن الحدث لا ينطلق عشوائياً، والشخصيات لا تتصرف ارتجالاً أو إعتباطاً، إن وراء كل حركة وسكنة في القصة هدفاً أو تعبيراً عن معنى.. عن فكرة عن موضوع، والتوازن الفني بين الشكل والموضوع (الفكرة)، هو المعادلة الدقيقة الحساسة لكاتب القصّة، فالبعض تغريه الفكرة بروعتها، فيهيم بها، ويتغافل عن الشكل الفني، أو يسخر ذلك الشكل بطريقة تعسفية لخدمة الفكرة، والبعض الآخر يتعشق الشكل الفني ولا يولي الفكرة ما تحتاجه من اهتمام، وكلا الفريقين على طرفي نقيض، لكنهما لا يستطيعان بلوغ المثل الأعلى الذي ننشده في فن الأدب، وفي قصص الأطفال بالذات.. إن الفكرة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفني للقصة، كما أن الفكرة تشكل مصدراً من مصادر

الإعجاب ونحن نقرأ القصة، ولا تستطيع أية قصة أن تتحدد ملامحها وكيانها المميز المؤثر إلا باستكمال عنصر الفكرة.

والأدب الإسلامي عامة يحفل بالمضمون أو الفكرة دونما غمط أو تجاهل للشكل الفني، نثراً وشعراً، فالأساس لدى الأديب الإسلامي هو إيصال معان وقيم معينة إلى الملتقي بالوسيلة الفنية البارعة، ويمكننا القول أن الشكل وسيلة، والفكرة رسالة، والغاية ايجاد الفرد المسلم ـ وهذا ما شرحناه هنا بشيء من التفصيل في باب «وظيفة أدب الأطفال».

والفكرة تضم في ثناياها الاسباب والنتائج والمعنى العام أو الخاص، ولكي تكون الفكرة مقنعة، فلا بد أن تختار بعمق، وتقدم بصورة قوية أخَّاذة، وأن «توحي» بأهميتها وآثارها الخطيرة، من خلال سريانها في الحدث قولاً وفعلاً وعاطفة، وقد يرى البعض أن الكاتب ليس ملزماً بتقديم الحل لأية مشكلة، إذ يكفيه أن يصور تلك المشكلة تصويراً صادقاً ملفتاً للنظر، ومن ثم تحرك في نفس القارىء أفكاراً وخيالات وقدرات، فيفكر في ابتكار الحل الأنسب، وهذا كلام ليس خاطئاً بصورة عامة، لكننا نقول إن قدرات الطفل العقلية والوجدانية والنفسية، لا تجعله قادراً على استنباط الحلول، وإتخاذ المواقف الواضحة، ولذا فإن من الضروري الحرص على «الإيحاء» إلى الطفل بسلوك ما أو بمشاعر معينة، على أن

يؤدي ذلك أيضاً - كما قلنا - للقصة الفنية المناسبة، وبالمحافظة على القيم الجمالية أو الفنية للقصة. لأن الطفل يختلف كثيراً عن الرجل الناضج، ومعروف أن الناس لا يقرأون العمل الفني لجماله فحسب، كما يزعم دعاة «الفن للفن» ولكنهم يستمتعون بفكرته أيضاً، باعتباره جزءً من جمالية القصة..

ثم ما هي «الفكرة» التي تناسب الصغار، وقد لا تصلح للكبار؟؟ سؤال يجب أن يجيب عليه كاتب قصص الأطفال قبل أن يبدأ في الكتابة..

٧ - الصدق

الصدق كمصطلح فني يتداخل في كل أجزاء وأنسجة العمل الأدبي، ويقصد به توافق التعبير مع المعنى، والتسلسل المنطقي المقنع للوقائع، والرباط العضوي الوثيق بين الشكل والمضمون، مما ينتج عنه القدرة على التأثير عقلياً ونفسياً ووجدانياً، ثم تبني مواقف وسلوكيات بناءة مقصودة في غالبيتها أو عمومها، ومن عناصر ذلك الصدق الإستفادة من الحقائق الدينية والتربوية والنفسية التي استنبطها العلماء المختصون في فروع المعرفة المختلفة، تبعاً للدراسات والتجارب والمشاهدات الأمنية.

وبالنسبة لأدب الكبار، قد يعتبر البعض أن «الاستبطان»

أو إخراج ما في العقل الباطن من شتات أفكار ومشاعر غير مترابطة قد يعتبره البعض لوناً من ألوان الصدق الفني. لكن هذا التصور بالنسبة لأدب الأطفال يعتبر خطأ فادحاً، وخروجاً على أصول الحقائق التربوية والنفسية بالنسبة لأي طفل، ومعنى ذلك أن لأدب الأطفال خصوصياته واحتياجاته وظروفه.

حتى قصص الأطفال الخيالي أو الخرافي، يكون في مسيس الحاجة إلى الصدق الفني والموضوعي، أي يؤدي بطريقة منطقية مقنعة، بحيث يصبح الخيال وكأنه حقيقة، فالطفل سرعان ما يهرب من قراءة القصص الذي يشم فيه شيئاً من الخداع وفرض أشياء بعينها، ولهذا فإن بعض النقاد يعتقد أن الطفل هو أذكى ناقد لما يقرأ، وإن كان رأيه في العمل الأدبي يتركز في الإقبال على العمل أو النفور منه، ولهذا أيضاً يرى المتخصصون في أدب الأطفال أن الكاتب لا بد وأن يكون فيه قدر من «رؤى الطفولة وعواطفها»، وأن يعيش عالمها أو يتمثله ما أمكن.

يقول الدكتور علي الحديدي: «... والقصة الجيدة، لا بد وأن تشتمل أولاً وقبل كل شيء على صدق واضح مسلم به: ونعني بالصدق هنا: ما يعطي البصيرة والإدراك لمظهر الإنسان وروحه. ويدخل فيه العرض الصادق للمعرفة التجريبية، فالأعداد المتزايدة من كتب الأطفال في العالم

قادت كل جيل من أطفال البلاد المتقدمة حين كبروا، إلى كشف الحقائق العلمية أو التاريخية أو الإجتماعية، وثبتت في نفوسهم روح المثابرة والبحث، سواء أكانت مادة الموضوعات لهذه الكتب قديمة قدم أول عمل قام به الإنسان، أم حديثة حداثة التجربة الأخيرة في الكيمياء أو في الصعود إلى القمر، فإن الأطفال يستفيدون منها ما دامت المادة جيدة أو مثيرة، لكل فرد يكتشفها في الكتاب لأول مرة. والصدق موجود في عالم الأطفال، وفي عالم الوهم والخيال، وحتى في عالم الفكاهة والخرافة وحكايات الجان، وموجود كذلك في قصص الحيوان. ومغامرات الأبطال، وفي الأساطير القديمة، والحكايات الشعبية، وكما يوجد الصدق في قلب الإنسان وروحه، يوجد كذلك في المعمل، وفي الحقول والغابات، ومن ثم فموضوع القصة الجيدة، يجب أن يكون قيماً ومفيداً بحيث يستحق أن يبلغ الأطفال، وأن يكون قائماً على العدل والنزاهة والطهارة والأخلاقيات السليمة، والمبادىء الأدبية والسلوكية التي ترسخ ثقة الأطفال في هذه القيم، وأفضل ما يقدم للأطفال من القصص قصص تنطوي أحداثها على حقائق تستحق أن تخلد وتلهم الحياة الشعورية الداخلية للإنسان، وهي تلك التي لا تحيي في الأطفال العواطف الحمقاء، أو الشعور الواهي، بل تكوّن فيهم دقة الشعور، ورقة الإحساس، مثل هذه القصص تمكن الأطفال من المشاركة في العواطف

والأحاسيس الإنسانية الكبر ، وتزودهم باحترام الحياة الإنسانية العالمية وتقديرها ، ومن ثم يقدرون حياة الحيوان والنبات، ويتعلمون كيف لا يحتقرون أي شيء غامض في المخلوقات أو الإنسان»[1].

وقد يعتقد البعض أن تناول قصة من القصص كما حدثت بحذافيرها في الحياة أو الواقع يعتبر هو الصدق المطلوب، ونسوا أن الصورة الشمسية أو الفوتوغرافية صورة خارجية سطحية. لا تشي بما في النفس من إنفعالات، ولا تتناول ما بالعقل أو الفكر من تيارات، ولا تفسر سلوكاً بعينه التفسير الصحيح، لأن الأساس في وظيفة الأديب أن يتناول الحدث العادي، كي يبرز أهميته وبواعثه وآثاره، ولكي يعيد تنسيق وقائعه وحركته الداخلية والخارجية بأسلوب فني يراعي فيه شتى الجوانب من حبكة وشخصيات ووقائع وتعبير فني كله إلى التأثير في السلوك والفكر والمواقف... من هنا نرى أن الواقع كما هو قد يكون عادياً ممحلاً، أو بلا دلالات عميقة، لكن الواقع إذا تناولنا مادته الخام، وأعملنا فيها يد الفن والفكر، إستطعنا أن نخرج منه شيئاً مؤثراً حاداً جذاباً... إن لوح الخشب غير النافذة أو الباب، وقطعة النحاس أو الحديد التي تستخرج من المنجم تختلف عن المصنوعات المعدنية المفيدة أو الجميلة.. من هنا يدخل في

---

(١) من أدب الأطفال ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

معنى الصدق، الإستخدام الأمثل للمادة الخام ـ أو الواقع ـ وعرضه العرض الجيد، وتأكد معنى الجمال فيه، وكذلك تجسيد ناحية النفع منه.

والقرآن الكريم ـ وهو المثل الأعلى ـ يقدم لنا في قصصه العظيم الخالد نماذج رائعة من ذلك، فقصة يوسف مثلاً لا تأتي مجرد حوادث، ولكن تحتدم فيها المشاعر الإنسانية بشتى صورها، بضعفها وقوتها، كما تتزاحم فيها الأفكار، وتتلاقى النماذج البشرية المعبرة، وتنبض فيها العبرة والحكمة، ومن ثم نرى أنفسنا، ونحن نقرأ تلك الآيات، أمام صورة صادقة حية معبرة، تحمل كل عناصر الصدق والحيوية والتأثير، كما نرى الفكرة الرئيسية المهيمنة التي هي أساس العقيدة السليمة، والتربية الصحيحة.

الصدق في أدب الأطفال معنى واسع ـ كما قلنا ـ ويشمل الشكل والمضمون، والتنسيق البديع بين الأجزاء والجزئيات، ويتناول اللفظة والجملة والعبارة، والتصوير النفسي، والمنهج التربوي، ويعم القصة كلها من ألفها إلى يائها..

وكلما تقدم الطفل في عمره العقلي، كلما مال أكثر إلى القصص الواقعي، وكنت أسمع أطفالي وأنا أحكي لهم بعض القصص يقولون لي في النهاية هل هذه قصة خيالية أم حقيقية ؟؟ وكنت أجد صعوبة في الإجابة في البداية، مخافة

أن يضيع تأثير القصة إذا علموا أنها غير واقعية، وبالتدريج استطعت أن أوضح لهم بعض الأمور التي تتناسب مع أعمارهم، مؤمناً أن الطفل يفضل الصدق، ولا يحرمه ذلك من المتعة الفنية ولو لم تكن القصة واقعية. وهكذا نرى الطفل يتدرج في حبة وشغفه وتقديره للقصص الواقعي، وهو أقرب إلى الصدق عقلياً ونفسياً بالنسبة للطفل، لكن نظل نحن حتى في الكبر، ويظل الطفل متعشقاً للقصص الخيالي إذا ما أدى بالأسلوب المناسب، وروعيت فيه الأصول المختلفة لفن القصة.

أنواع القصة!

القصة كما هو معلوم تعتبر اللون الرئيسي في أدب الأطفال، وللقصة في هذا الأدب أنواع منها:

- الأسطورة
- الخرافة وقصص السحر
- القصة الواقعية
- القصة الشعبية
- القصة التهذيبية
- قصص الجن والأشباح
- قصص شعري
- قصص البطولات

- قصص المغامرات
- القصص البوليسي وقصص الألغاز
- قصص الحيوان والجهاد
- القصص المترجم.

وقد يثور تساؤل هام حول « مشروعية » بعض أنواع هذه القصص من الناحية الدينية، وسوف ننظر في كتابنا الكريم ـ القرآن ـ لنرى أو نستنبط منه ما يهدينا في هذا الطريق الدقيق فمن المعروف أن السحر ورد في القرآن الكريم، فلدينا قصة هاروت وماروت اللذين يعلمان الناس السحر، ويفعلان أشياء ليفرقا بين المرء وزوجه مثلاً، ولن يضار أحد إلا بإذن الله، وهناك السحرة الذين حشدهم فرعون « يوم الزينة » في محاولة للتصدي لمعجزة موسى عليه السلام: إذن فالسحر موجود، وله تفسيره وأساليبه، والسحرة يسحرون أعين الناس، فهو إذن ضرب من الخداع والمهارة الفائقة في الزيف والتضليل، لكن الإسلام ـ برغم إقراره ووجوده ـ يرفضه بشدة ويعتبره رجساً من عمل الشيطان، وضلال مبين، فإذا ما كتبت قصة للأطفال وفيها السحر فلا مانع، بشرط مراعاة المفهوم الإسلامي لهذا الجانب.

كذلك ورد ذكر الجن في القرآن الكريم، وهناك سورة من سور القرآن تحمل اسم « الجن »، وللجن عالمهم الخاص، وفيهم المؤمن والكافر، وقد استخدمهم نبي الله سليمان

ـ كمعجزة ـ في بعض الأعمال ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك..﴾ وتحضير الجن واستخدامهم بأساليب معينة، قد شابه الكثير من الخرافات والخزعبلات، ونهى الإسلام عن ذلك. وما قيل عن قصص السحر يمكن أن يقال عن قصص الجن.

وقصص الحيوان نرى أنه لا مانع منه بالنسبة للأطفال، بل والكبار أيضاً، وهناك آثار أدبية حديثة كتبت للكبار بالإضافة إلى آثار قديمة، فمن القصص المشهور رواية الكاتب الشهير «أورويل» والتي تحمل عنوان «مزرعة الحيوانات الثورية» والتي يهاجم فيها الأسلوب الشيوعي الخاطىء كمنهج للحياة. ومن التراث القديم يقف كتاب «كليلة ودمنة» كنموذج فذ في هذا المجال، ولقد أثر هذا الكتاب في الآداب العالمية التي تختص بالطفل بعد تناول بعض قصصه بالتبسيط والتعديل، كما أننا نرى في القرآن الكريم ذكر لبعض الحيوانات والحشرات نذكر منها «هدهد سليمان» والنملة التي قالت: ﴿يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده...﴾ الخ الآية؛ وهناك بعض المعجزات التي نسبت إلى رسول الله ﷺ، حيث خاطبه الضبُّ والغزالة والجمل... الخ [١]، والواقع أن الحيوانات تستخدم كرموز في الفن والدين

---

(١) أنظر كتاب دلائل النبوة ـ وأحاديث البخاري ومسلم..

على حد سواء، فضلاً عن أن بعض الحيوانات لها صفات مميزة مثل الشجاعة في الأسد، والبطء في السلحفاة، والمكر في الثعلب. والدأب والصبر والتخطيط في النمل والنحل، وغير ذلك من الأمور الهامة التي يمكن استخدامها في ترسيخ بعض القيم والأفكار والسلوكيات لدى الطفل...

ولقد ورد في القرآن أيضاً أن أعضاءنا سوف تشهد علينا يوم الحساب.. يوم تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم..»، بل إن الميت قد تكلم كمعجزة، لكن تبقى قضية في غاية الأهمية بالنسبة للميثولوجيا أو الأساطير الدينية الأغريقية.. هل نستطيع أن نقدم للطفل المسلم في بداية حياته قصص عن إله الخير، وإله الشر، وإله الجمال.. والحب... والشعر.. والموسيقى وغيرها، كما أن هذه الميثولوجيات والأساطير لها تفسيراتها الخرافية عن الكون وظواهره، عن الريح والشمس والقمر والبحار والأنهار، والأزهار والحيوانات، وهي تفسيرات تتناقض مع حقائق العلم والدين، وتخلط بها الوثنيات الخطيرة، وتقدم رموزاً عجيبة أثرت ـ حتى اليوم ـ في الآداب والفنون العالمية، على حقب التاريخ المختلفة، ولعل هذا هو السبب في أن علماءنا الأقدمين قد ترجموا علوم الإغريق وفلسفتهم ولم يهتموا كثيراً بترجمات تلك الأساطير والميثولوجيات لتنافيها مع قيم الإسلام وعقيدته ومبادئه، ولهذا فنحن نرى أن مثل تلك الأساطير والميثولوجيات لا يصح أن

تقدم للطفل المسلم مترجمة أو مقتبسة أو مقرّبة، نظراً لخطرها الديني والعلمي، لكن هل يستمر هذا الخطر إلى الأبد؟؟ يمكننا التجاوز عن ذلك بعد أن يكبر الطفل، وتترسخ عقيدته، ويحصن ضد تلك الخزعبلات، ثم تقدم له لمجرد العلم بالشيء، مع توضيح خطأ ذلك التصور، الذي نشأ في عهود الوثنية والضلال.

إن إبعاد مثل هذه الأساطير والميثولوجيات عن أطفالنا في المراحل الأولى من أعمارهم أمر حيوي وضروري، ولسنا - كمسلمين - بدعاً في ذلك، لأن الدول الماركسية وإسرائيل وغيرها، يحرصون أشد الحرص على تغذية أطفالهم بالأفكار والخيالات والأحداث التي تخدم فلسفتهم وعقيدتهم، بل إنهم يبالغون أحياناً في ذلك إذ يهدرون بعض القيم العلمية الثابتة، إذا تعارضت مع ما يؤمن به الماركسي أو الصهيوني من عقيدة، وليس أدل على ذلك من رفض روسيا ومدارسها الفكرية للكثير من نظريات علم النفس وعلم الإجتماع والأمور الثابتة يقيناً في الدين، حتى لا تهتز عقيدة أجيالهم الجديدة بالماركسية، ونفس الشيء تفعله إسرائيل حينما تزيف التاريخ وتحرف التوراة، وتعبث في التلمود، لتخرج بمعتقدات ومبادىء غريبة، ورد ذكرها في القرآن الكريم، وطفحت بها صفحات وقائعهم التاريخية المذرية.

خلاصة القول بالنسبة لهذه الأنواع من القصص أن ننظر

إليها من خلال منظور إسلامي صحيح، ثم نحكم لها أو عليها، وأعتقد أن أمام الدارسين والباحثين الإسلاميين مهمة كبيرة، ويجب إنجازها في هذا المجال، حتى تتضح الأمور، فلا نمضي معصوبي العينين، مقلدين لمدارس الفكر والأدب التي لا تعطي منهج الله حقه من التقدير والتعظيم...

والحقيقة التي لا مراء فيها أننا اليوم في عصر قد تحققت فيه كشوفات كبيرة في مجال العلم والتكنولوجيا. وتنوعت فيه وسائل البحث والدراسة والتقييم، فلا يصح أمام ذلك أن ندفع إلى أطفالنا بقصص ساذج، يخرج بهم عن مقاييس العلم الصحيح وقيمه الثابتة، فضلاً عن أهمية الحفاظ على الأسس الدينية التي يقوم عليها الإسلام.

ومن الأمور الملفتة للنظر أن أطفـــال اليوم يميلون أكثر إلى القصص الواقعي، ويشغفون به، ويستطيعون أن يميزوا بين ما هو خيالي وما هو واقعي. فالطفل وإن كان يستمتع بقصة الذئب والحمل، إلا أننا نجده يتساءل: «هل الذئب يتكلم... هل الحمل يتكلم فعلاً»؟، وليس هذا إغفال للخيال في حياة الطفل.. فبساط الريح القديم، لا يختلف كثيراً عن طائرة اليوم. وكذلك الهاتف... والكهرباء.. والتلفاز.. والراديو.. وسفن الفضاء.. كلها كان خيـال الأمس، لكنهـا حقـائـق اليوم.. وميل الطفل إلى القصص الواقعي ميل طبيعي، إذ لا

يجد الطفل فارقاً كبير بين خيالات الماضي، ومنجزات الحاضر..

ولقد كان للمرحوم «علي أحمد باكثير» تجربة جديرة بالنظر حينما عالج أسطورة «أوديب الملك» إذ قدمها من منظور إسلامي حديث، يختلف تمام الإختلاف عن الميثولوجيات القديمة، وقد كان للنقاد آراء مختلفة إزاء تقييم أو تقويم هذا العمل المسرحي الهام[1].

مرة أخرى نقول: إن مقياسنا هو الإسلام..

---

(1) أنظر رسالة الماجستير التي قدمها عبد الرحمن صالح العشماوي ـ كلية اللغة العربية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود..

الشعر وأدب الأطفال

يقال أن « الشعر لغة داخل اللغة »[1]. وهذا القول إن دل على شيء فإنما يدل على أن للشعر لغته أو أسلوبه الخاص، ومن قديم أكّد النقاد والمؤرخون القدامى على تفرد الشعر بأسلوب يختلف عن النثر، ومن ثم فقد اعتبر الشعر الذي يترجم عن العلوم والقواعد اعتبر نظماً، أي نثراً منظوماً كألفية ابن مالك وغيرها، لأنها ليس فيها من صفة الشعر إلا الوزن والقافية الموحدة في الشطرين، وإن اختلفت تلك القافية من بيت إلى بيت، فماذا يقول ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقمْ
اسم وفعل ثم حرف الكلمْ
بالجر والتنوين والندا وأل
ومسند للإسم تمييز حصل.. ألخ

فماذا يشعر القارىء وهو يقرأ هذه الأبيات، إنه أمام

(١) د. عز الدين أمين ـ فنون الأدب ص

قواعد تشبه النظريات الهندسية، والمعادلات الرياضية، والتعريفات الفيزيائية، وهذا لا يمكن أن يكون شعراً بالمعنى الصحيح، وإنما هو كلام متراص. لا يحرك فينا عاطفة، ولا يثير شعوراً، ولا ينبه وجداناً، ولا يبعث في العقل تشوقاً وفضولاً.

وما أكثر الذين ينظمون، وما أقل الذين نظمهم شعراً..

والأطفال يحبون الشعر، ويطربون لأنغامه وإن لم يفهموه في سنيهم الأولى، وتحرص الأم - كل أم - على هدهدة طفلها بالكلمات الموزونة المقفَّاة ذات اللحن أو الإيقاع، ويشعر الطفل عند ذاك بالرضى والإرتياح، وقد ينام على هذه الأنغام الحلوة، وقد ينشط ويضرب بأطرافه فرحاً وسعادة، وعندما يكبر يحفظ بعض الأشعار ذات البحور القصيرة، إذا سهل لفظها ومعناها، وبرزت إيقاعاتها، ويتدرج الطفل في تقبل الشعر وتمثله له عاماً بعد عام، حتى يصل إلى مرحلة يستطيع فيها أن يحفظ الأناشيد الحماسية، والقصص الشعرية، ويرددها مع زملائه في المدرسة، ويفخر بالتغني بها في الشارع والبيت، ـذا إذا أسس بهذا الشعر وتذوقه [1].

خلاصة القول أن «التعبير الشعري» أو «الصورة الشعرية» تقدم بطريقة فنية معينة، وذلك يعتمد إلى حد كبير

---

(١) من أدب الأطفال.. ص ١٩٨، د. علي الحديدي.

على موهبة الشاعر وثقافته وتجربته، وتفاعله مع تلك التجربة الحية النابضة، والشعر مشاركة وجدانية وفكرية بين الشاعر والمتلقي، ولهذا يستفيد الأطفال كثيراً من سماع الشعر وحفظه، إذا كان مناسباً للطفل من ناحية ألفاظه وأفكاره وموسيقاه وصوره الفنية. كنا ونحن أطفال نطرب للقصيدة التي تتحدث عن الطنبور والتي تقول:

أيا طنبور دُرْ هيّا فزرعي يطلب الريّا
أطعْ في الدور كفيّا وجيءْ بالماء والطين

وكنا نتغنى بتلك القصيدة في القرية، ونتطوح معها ونحن نرددها في سعادة، كانت موسيقاها جذابة، وكلماتها سهلة مفهومة، فمن منا ـ نحن أبناء القرية ـ لا يعرف الطنبور الذي يسحب الماء من الترعة، وينقله إلى قناة الحقل، ليتم توزيعه على مختلف التقاسيم؟؟ ومن منا لا يعرف الري، وانتظار القرية لأيام الفيضان بتشوق ولهفة؟؟ وتعبير «فزرعي يطلب الريا»، ترمز إلى انتظار الفلاحين أيضاً، وليس الزرع وحده، القرية كلها ظامئة تتشوق إلى الماء.. ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، والشاعر يعبر عن واقع، ويبرز فكرة، ويوحي بما يبذله الفلاح من جهد، وهو به سعيد، لأنه يعني النماء والحصاد والخير، قد لا يستطيع الطفل القروي أن يعي تلك الأمور كلها، لكن الصورة الحية تعكس بيئته وآمالها وطبيعة حياتها، وتكون محصلة ذلك كله سعادة الطفل وهو يترنم

بتلك القصيدة التي ذكرنا افتتاحيتها..

ثم تلك النشوة التي نشعر بها، ونحن نردد نشيد

قرآن ربي

هدى ونور

لكل قلب قرآن ربي

فالإجلال الذي يتوارثه الطفل المسلم نحو الله وقرآنه، إجلال عميق، نلحظه على ألسنة المتحدثين، ونسمعه من القارئين المرتلين، حيث يعم الخشوع والإنصات، وحيث تتوارد الحكمة القدسية، والآداب الربانية.

وحتى «الشعر العامي» ـ وإن لم نكن من أنصاره ـ يزخر بالقيم الإنسانية الرفيعة، ويحمل معاني إسلامية، تؤكدها التربية، ويحرص عليها المجتمع المؤمن، ففي هذه المقطوعة التي تؤكد أحقية الأب في الإحترام والتبجيل، نرى ذلك المعنى واضحاً جلياً:

باب جاي إمته

جاي الساعة ستة

راكب ولاّ ماشي

راكب «بسكلته»

وسّعوا له السكّة

واضربوا له سلامْ

بهذا نرى أن الشعر المناسب للأطفال يساعد في تنمية أذواقهم، وإثراء مداركهم، والمساهمة في تأكيد القيم التي يجب أن يتحلوا بها، ويمدهم بخبرات جديدة متنوعة، وتجعلهم يشعرون بلذة المشاركة في التجربة الإنسانية وجدانياً ونفسياً وعقلياً، والموضوعات التي يتناولها شعر الأطفال كثيرة ومتنوعة، المهم أن تكون التجربة عميقة، وذات دلالات وأبعاد وآثار مبتكرة، تشد الإنتباه، وتشحذ الذهن، وتلهب العاطفة.. ويمكننا أن نجمل الصفات المناسبة لشعر الأطفال في الآتي:

١ ـ الحرص على اللغة الشعرية لفظاً وعبارة وصورة.

٢ ـ الإهتمام بالبحور ذات الإيقاع الساحر الجذاب

٣ ـ يُسْر الأفكار والمعاني وسهولتها

٤ ـ البعد عن التعقيدات البلاغية والبيانية.

٥ ـ اختيار موضوعات تناسب واقع الطفل وإهتماماته.

٦ ـ توافق القيم الشعرية، مع ما تعلمه الطفل من عقيدته الإسلامية.

٧ ـ النظر في المشاكل الأخلاقية والنفسية والتربوية للأطفال والشباب، وتناولها في وقت مبكر فيما يقدم من شعر.

٨ ـ وضع أغاني الأطفال في التلفاز والمذياع تحت توجيه علماء الدين والنفس والتربية، لأن الأطفال يحفظون مثل تلك الأشعار، وتؤثر فيهم أيما تأثير.

٩ ـ وحدة القافية لمالها من آثار داخلية في نفسية الطفل ووجدانه

١٠ ـ شمول الصورة الشعرية لمختلف حواس الطفل.

ويعد أمير الشعراء «أحمد شوقي» رائداً في مجال شعر الأطفال، لما كتبه لهم خصيصاً من قصص شعري على لسان الحيوان، حيث امتزجت فيه الحكمة بالفكاهة، والعبرة بالتوجيه، وإبراز بعض القيم السلوكية ذات العلاقة بالدين والوطن، وقد ظهرت هذه القصائد في دواوينه، وعمم بعضها على طلبة المدارس، فكانت فتحاً جديداً في هذا الباب، وذلك لمحافظتها على الأسلوب الشعري الأصيل، والأفكار المبسطة، والصياغة الفنية الجيدة. وكان تحرك شوقي في هذا المضمار بناءً على ما شاهده في فرنسا ـ إبان بعثته ـ من احتفائهم بأدب الأطفال، وطبقاً لما قرأه للشاعر الفرنسي الشهير «لامرتين» الذي استفاد من قصص «كليلة ودمنة»، واختار بعضها، وأعاد صياغتها وإبرازها بأسلوب شعري أخّاذ، يناسب الأطفال.. لنقرأ له قصة «اليمامة والصياد»:

يمامة كانت بأعلى الشجرة
آمنة في عشها مستترة
فأقبل الصياد ذات يومٍ
وحام حول الروض أي حومٍ

فلم يجد للطير فيه ظلا

وهم بالرحيل حين ملاً

فبرزت من عشها الحمقاءُ

والحمق داء ما له دواءُ

تقول جهلاً بالذي سيحدثُ

يا أيها الإنسان عما تبحثُ ؟

فالتفت الصياد صوب الصوت

ونحوه سدَّد سهم الموت

فسقطت من عرشها المكين

ووقعت في قبضة السكين

تقول قول عارفٍ محقق

« ملكت نفسي لو ملكت منطقي »

ومع ذلك فإن بهذه المقطوعة بعض الكلمات التي تحتاج إلى شرح، مثل كلمة « مستتره - وملّ - والمكين - ومحقق - ومنطق »، ويبدو أن شوقي حاول الحفاظ على إشراقة أسلوبه، ودقة تعبيره، وإبراز الفكرة - أو الحكمة - التي يريد تجليتها، وهي معادلة صعبة، لا بد وأن تجر إلى شيء من هذا، فضلاً عن أن الطفل في حاجة إلى إثراء حصيلته اللغوية، والتعود على الاساليب الرصينة الجميلة، ومن ثم لم يكن أمامه سوى أن يفعل ذلك، ويكفي شوقي فخراً ريادته في هذا المجال، ودعوته لشعراء العربية وأدبائها إلى المساهمة في تدعيم وتكرار

تجربته وتنويعها.

أما الشاعر «محمد الهراوي» الذي أتى بعد شوقي، وأولى شعر الأطفال الأهمية القصوى التي يستحقها، فقد تفرغ لهذا الأمر، منذ بدايات العشرينيات من هذا القرن، وقدم عدداً من المؤلفات الشعرية، تتميز بسهولة اللفظ، ويسر التعبير، وجمال الأداء، وحلاوة الإيقاع، فكانت متناسقة مع أحلام الطفل وآماله وإستعداده الفطري، وظروفه البيئية والعقائدية، وليس أدل على نجاحه من حفظنا لهذه المقطوعات وترديدنا لها برغم بعد العهد بها، ومنها:

أنـــا في الصبـــح تلميـــذ وبعـــد الظهـــر نجـــارُ
فلـــي قلـــم وقـــرطـــاس وإزميـــل ومنشـــارُ
وعلمـــي إن يكـــن شرفـــاً فمـــا في صنعتـــي عـــار
فللعلمـــاء مـــرتبـــة وللصنـــاع مقـــدارُ

وكأني بهذا الشاعر الكبير، أحد الرواد القلائل، يخط للأجيال الجديدة طريق النجاح الحقيقي، حيث العلم والمعرفة، وحيث العمل الحرفي المشرف، وقد كان الكثيرون في تلك الفترة يأنفون من مثل تلك الحرف، ويعتبرونها صنعة وانحطاطاً، وهي قضية لم تتضح أبعادها الحقيقية إلا فيما بعد وبعد شوقي والهراوي وكامل كيلاني وغيرهم، بدا الإهتمام واضحاً بأدب الأطفال وشعر الأطفال، وظهرت المطبوعات

الشعرية في مختلف بلدان العالم العربي، كما كثر المترجم شعراً منها، والمكتبة العربية اليوم تضم تراثاً لا بأس به من شعر الأطفال، في مصر والعراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والكويت والمغرب العربي وباقي أنحاء العالم العربي، مما لا يتسع المجال لسرده: وقد تأثر التراث الشعري للأطفال في كل دولة، بما يحيط بها من ظروف وأحداث وتطلعات، كما حفلت مجلات الأطفال بألوان من الشعر يناسب سن الطفولة المختلفة، وساهم المذياع والتلفاز في تقديم العديد من الأغاني والأناشيد والقصائد.

الشعر إذن رافد هام من روافد الثقافة للطفل..
وهو في نفس الوقت مصدر متعة وسعادة..

ويعتبر من أقوى المؤثرات في تربية الذوق الفني، والحس الجمال، لما يجتمع فيه من حلاوة الإيقاع، ورشاقة التعبير، وجاذبية الصورة، وبما يثيره من أخيلة..

وإن من الشعر لحكمة...
يبقى أن نقول أن يظل شعر الأطفال شعراً ملتزماً بقيم الإسلام وتصوراته، شأنه في ذلك شأن الأدب الإسلامي بصفة عامة، ومن هذا المنطلق الأساسي يستطيع الشعر أن يؤدي وظيفة هامة، ذات أبعاد عدة، عقيدية وجمالية وشعورية ووجدانية وفكرية.

المسرح المدرسي

لما كانت التربية معنية في الأساس بالإنسان كأهم ركائز المجتمع، لذلك كان لا بد لها أن تهتم بالمسرح، وتستخدمه كوسيلة تربوية تعليمية، إن وسائل التربية تتجدد باستمرار بما لا يتعارض مع قيمنا الإسلامية، وتراثنا المجيد، ولهذا كان لزاماً علينا إستخدام المسرح لحماية أبنائنا من الغزو الثقافي، والمسرح المدرسي أصبح إحدى الدعامات التربوية الحديثة لما يتيحه للتلميذ من الفرص الثمينة، للتعبير عن النفس، واكتساب الخبرات والمهارات اللغوية والإجتماعية، في جو تسوده روح التعاون والألفة والمحبة، ومن أهداف المسرح المدرسي:

١ ـ ترسيخ القيم الإسلامية الأصيلة

٢ ـ تعويد التلاميذ على العمل التعاوني الجماعي وتدريبهم على مواجهة الجمهور، واكتساب الثقة بالنفس.

٣ ـ التعرف على الحياة، والطبائع البشرية، مما يجعل الحياة أكثر نضجاً وخصوبة.

٤ ـ تبسيط المادة العلمية، وتحويل جفافها إلى خبرات ذات معنى يمكن استيعابها وتذوقها، أي أن المسرح يعتبر طريقة من طـرق التدريس

٥ ـ إضفاء جو من المرح والسرور على الحياة الرتيبة.

٦ ـ معالجة بعض الإضطرابات النفسية لـدى التلاميـذ مثل:

- الإنطواء والخجل
- التردد
- بعض العيوب الخلقية كعيوب النطق وأسـراض الكلام.

٧ ـ تربية التعبير الحركي (كالمشي والجلوس وغيره)، والتعبير العاطفي بما يكفل الإستقرار النفسي.

٨ ـ توعية الطفل ذاتياً واجتماعياً، وإذكاء روح العمل والأمل في نفسه.

★ ★ ★

والمسرحية المدرسية ـ كما قلنا ـ هي إحدى الأسس لتربية التلميذ في جميع مراحل حياته، إبتداء من سن أربع سنوات، وحتى بلوغه طور الرجولة والإعتماد على النفس، وواجبنا أن نجعل لهذه المراحل خطاً واحداً، وبناء متكامل التكوين، مع ملاحظة ما يطرأ من تغييرات في عالمه المليء بالأحداث، وعلى

ضوء ذلك يمكن تقسيم المسرحيات المدرسية حسب المراحل التعليمية.

ففي مراحل رياض الأطفال نهتم بالآتي:

١ - المسرحية الحركية المنطوقة.

٢ - المسرحية الأخلاقية.

٣ - المسرحية الرمزية أي التي ترمز إلى معنى معين

وفي المرحلة الإبتدائية:

١ - المسرحية السلوكية والأخلاقية.

٢ - المسرحية البيئية المنطوقة.

٣ - المسرحية التعليمية (التي تعبر عن المواد العلمية)

٤ - المسرحية الترفيهية.

٥ - مسرحية المناسبات (كالهجرة - عيد النصر... ألخ)

وفي المرحلة الإعدادية:

١ - المسرحيات التاريخية

٢ - المسرحيات الإجتماعية

٣ - المسرحيات العلمية

٤ - المسرحيات الترفيهية.

هذا، ومن البديهي أن يراعى في كل مرحلة، مناسبة النص لغوياً، وتحديد الهدف بصورة واضحة، وإدراك الأبعاد

الفكرية والنفسية للأثر الفني بصفة عامة.

ونقصد « بالمسرحية الحركية المنطوقة » أن يكون الموضوع عبارة عن معلومات عامة صغيرة للمشاهدات التي يستقبلها الأطفال، ويحدث عن معرفتها، ففي رياض الأطفال يمكن أن نقدم ـ مثلا ـ مشهداً لعملية حرث الأرض، والأطفال هم الذين يمثلون الزراع، ثم تتم عملية بذر البذور، على أن تكون الحركات مصحوبة بالإيقاع الموسيقي المعبر، مع النطق ببعض الكلمات البسيطة التي تعرف المتفرج بشخصية الدور الذي يؤديه الأطفال، وهنا من الممكن أن يدور حوار قصير بين الأطفال عن فوائد الشجرة من ثمار وتجميل وتظليل وحماية المدينة من الأتربة... الخ.

أما المسرحية « البيئية المنطوقة »، فهي تمثل قطاعاً من الشعب، بما فيه من عادات وتقاليد وملابس وغير ذلك.

و « المسرحية السلوكية » توجه الطفل إلى ما يجب أن يكون عليه السلوك في المنزل والمدرسة والمسجد والشارع والملعب والزيارات، ويركز فيها على أن الطفل الذي لا يطيع والديه وأساتذته، ولا يعمل بنصائحهم يجد الضرر، أما المطيع المؤدب فيجد دائماً السلامة والنجاح والحب والتقدير.

و « المسرحية الأخلاقية » هي التي تحمل عناصرها الدعوة إلى القيم والمبادىء العالية، والتحلي بالأخلاق الحميدة، مثل

الأمانة والصدق، والعدل والشجاعة، ومساعدة المحتاج، وحب الوطن... الخ.

و «المسرحية الإجتماعية» هي التي تعالج شئون المجتمع، وما يشغل أذهان الناس في حياتهم العامة والخاصة، مما ينعكس على الأطفال في حياتهم. وتعالج المسرحية الإجتماعية مشاكل مختلفة منها:

- ضرر مصاحبة الأشرار
- التدليل وعواقبه الوخيمة
- الكسل أو اللهو الزائد وضرره... الخ.

ومن خلال هذا النوع يستفيد الطالب من معايشته للمسرحية في حل مشاكله الإجتماعية، وتبصره بشئون حياته الخاصة والعامة أما «المسرحية الخيالية» فهي تشمل جانبين. أولهما ما يجري على ألسنة الطير والحيوانات ومظاهر الطبيعة، والثاني يتعلق بما وراء الطبيعة - أو الغيبيات - وما يعرف عنها من أسرار وعجائب وشخصيات.

وهذا النوع ينمي في الطالب جانب الخيال والإهتمام، ويعلمه الإنصات والتأدب أثناء الدرس، فضلاً عما يستفيده من قيم ومعتقدات طبقاً لفكرة المسرحية.

و «المسرحية الترفيهية» هي المسرحية التي تؤدى بلغة خاصة، وحركة خاصة. فتبعث على المرح والضحك والتسلية،

وهي في الواقع فكاهة هادفة لا تقصد السخرية، ولكنها ذات جانب ترفيهي وجانب نافع، في نطاق الآداب الإسلامية المتعارف عليها...

أما «المسرحية العلمية» أو «مسرحية المناهج» فهي تعنى بتقديم المواد العلمية المقررة بصورة مسرحية، تعتمد على شخصيات، تقوم بترجمتها إلى «حركة» ومواقف، وعنصر الإختيار مهم، فهناك مواد قد لا تصلح لذلك، ومواد أخرى صالحة تماماً مثل التاريخ والتربية الإسلامية والعلوم المتعلقة بالحيوان والطير... الخ.

وفي معظم لغات العالم تطلق كلمة واحدة على كل من التمثيل واللعب، وهذا يعني أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الفعلين «يمثل» و «يلعب». إذن هي لعبة المحاكاة عند الأطفال، وصغار المراهقين، والتي تعتبر من ألعابهم المفضلة، وكلنا يعرف أن الصغار يحاولون تقليد أو محاكاة الكبار.. وهذا يعني أن لعبة المحاكاة هي لعبة إنسانية عميقة الجذور في نفوس البشر، وأنها سواء أكانت جادة أم هازلة تمثل تلبية لحاجة إنسانية، لا تقل في ضرورتها عن الإحتياجات البيولوجية كالطعام والشراب، وإن كانت تتميز عن الإحتياجات البيولوجية في تعاملها مع الفكر وأثره الأخلاقي في النفس، وقيمتها في تقويم السلوك، وزيادة الروابط بين الناس في المجتمع...

ويعتبر عامل التشويق في المسرحية الخاصة بالطفل، من أكبر العوامل المؤثرة إيجابياً أو سلبياً في مسرحيات الأطفال. إن هناك اللحظات التي يحبس فيها المتفرجون الصغار أنفاسهم، وهم يتخيلون ما سيكون من أمر الحدث الذي يراه الطفل، وهو حدث المغامرة أو الموت، ويترقب الفشل أو النجاح.. إنه أمر يثير الترقب والرهبة فيجلسون في سكون واهتمام...

إن الأطفال يتعشقون مثل هذه اللحظات. أكثر من أي جزء آخر في المسرحية، ولهذا فإن من يكتبون لمسرح الأطفال عليهم أن يركزوا إهتمامهم الفني على عملية التشويق تلك. لأن الإخفاق فيها إخفاق للعمل المسرحي كله، ألا وإن المسرحية الجيدة هي التي يتوافر لها جميع عناصر التشويق والإثارة وربط المشاهد بالأحداث والتعايش معها.

إن الفنون على اختلاف أشكالها هي مجموعة من المشاعر والأفكار والإنطباعات والإيحاءات التي تأخذ مظهراً حسياً نطلق عليه اسم «الشكل الفني».

والفن المسرحي يتميز عن غيره بصفات خاصة، أهمها هو

---

(١) انظر ما كتبناه حول «المسرح الإسلامي» ـ وانظر نشرة وزارة التربية والتعليم بالإمارات حول المسرح المدرسي إعداد طاعن جمعه ـ ثم مقالاتنا في جريدة الاتحاد (١٩٧٣) عن المسرح المدرسي.

أنه يظهر للوجود ويخاطب الإدراك بـواسطـة الألفـاظ التي تتمثل فيها مجموعة مـن المشـاعـر والأفكـار والإنطبـاعـات والإيحاءات.

وحتى تكمل عناصر الفن، وينضح مضمونه، فلا بد أن يخاطب الإدراك بأسلوب آخر غير الألفاظ المجردة، وهو مـا يُطلق عليه «التمثيل»، والتمثيل فن كبقية الفنون يتميز عنها بأن قوامه الألفاظ والحركـات وغير ذلـك مما يتطلبـه الفـن المسرحي، فالمسرحية لا تُقدم كألفاظ منسقة أو كعمل أدبي فحسب، وإنما كألفـاظ تُحكـى بشكـل معين، وتُصـاحـب بحركات معينة، في جو مسرحـي معين أيضـاً، فقـد تفقـد مسرحية رائعة قيمتها الفنية، بسبب رداءة تقديمها، أو سقم الحركات التي صاحبتها.

والمسرحية كعمل أدبي وفني لها صفاتها الخاصة التي تميزها عن باقي أنواع الأدب والفنون الأخرى، سواء أكان ذلك في طبيعتها أم في صياغتها، أم في طريقة إدراكها وتذوقها. فهي تـرتكـز على فنين كـدعـامتين أســاسيتين لها، هما: الأدب والتمثيل، ثم إلى بقيـة الفنـون الأخـرى مـن رسم وديكـور وإضاءة... وغيرها، كعوامل مساعدة لإبراز الحدث بالشكل الذي يتطلبه الموقف البنائي للعمل المسرحي.

وعلى هذا يصل هذا الفن إلى الإدراك عن طريق حاستين

من حواس الإنسان هما :

- السمع
- والنظر

وبإيجاز فإن « الكلمة » هي الخيط الذي يُنسج منه العمل المسرحي، وهي اللبنة الأساسية للبناء المسرحي، وتتضافر الفنون الأخرى بإمكاناتها المختلفة في خدمة الكلمة، وصقلها وتجميلها وتقديمها في إطار مشوق جداً، يغري المشاهد بالنظر والإدراك، لما يهدف له العمل من توجه وإيحاء[1] ...

★ ★ ★

أدب المسرح جزء من أدب الأطفال.

لكن مسرحية الطفل لها مواصفاتها الخاصة، فليس من المعقول أن يستوعب الطفل أدباً مسرحياً معقداً غامضاً، أو قصة ذات أبعاد فوق مستواه، ولهذا السبب خصصت مسارح للأطفال مثل « مسرح الطفل » في الكويت، و « مسرح ليلى » في الإمارات العربية المتحدة، و « مسرح الأطفال » في مصر وغيرها، وفي نفس النطاق اهتم التلفاز والإذاعة بالتمثيليات التي تناسب الأطفال، سواء ما كان منها مسلسلاً أو كان في فقرة واحدة مستقلة، وتبدو الشخصيات في المسرحية أو التمثيلية كبشر أو كحيوانات أو طيور أو زهور، وهي في مجملها تؤدي معنى معيناً، أو هدفاً محدداً، ونقصد إلى

---

(١) نفس المراجع السابقة.

سلوكيات خاصة، وفق الأصول التربوية والإسلامية والنفسية المتعارف عليها.

أدب المسرح إذن لون لا يمكن إغفاله في نطاق الحديث عن أدب الأطفال.

وأدب مسرح الأطفال لا يُكتب ليُقرأ، بل ليُمثل.. هذه حقيقة هامة لا يصح إغفالها، فالطفل لا يستطيع أن يستمتع الإستمتاع الكافي بقراءة مسرحية له، حتى ولو كانت في أسلوب سهل مبسط، إنه يسعد ويطرب لقراءة القصة الناجحة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمسرحية، لأنها تفتقد - إذا ما قُرأت - باقي المؤثرات الحيوية التي ترتبط بالبناء المسرحي الناجح، وسوف يتضايق الطفل وهو يقرأ الحوار وحده دون سرد، ثم وهو يتوقف عند بعض الملاحظات أو الوصف الزماني والمكاني والحركي... وذلك كله على النقيض من مسرح الكبار، حيث يمكننا الإستمتاع بقراءة مسرحية لتوفيق الحكيم كأهل الكهف أو مسرحية مترجمة من روائع الأدب العالمي، نقرأ هذه أو تلك ونتابعها في شيء من الشغف ونستمتع ونستفيد منها، أما الطفل فيختلف عنا نحن الكبار في هذا الجانب..

إن أدب الأطفال المسرحي يكون للتمثيل، وليس للقراءة.. وبديهي أن هناك كثيراً من الموضوعات التي يحفل بها مسرح الكبار، لكنها لا تصلح لمسرح الطفل.

وظيفة أدب الأطفال

العلاقة بين الكلمة والمعتقد ـ في ضوء الإسلام ـ علاقة عضوية، وأي تنافر بين الشقين، يخرج بالإنسان عن دائرة التصور السليم، ويحدث فجوة تغيب في ظلماتها معاني الصدق والخير والفعالية، وإذا حدث إنفصام بين الكلمة والمعتقد وقعت النفس الإنسانية في تيه الحيرة والتمزق، وضلّت خطاها إلى الطريق المستقيم، وأصابها التعثر والإنتكاس، ومن ثم فإن تواصل الكلمة بالمعتقد يلد السلوك السليم، فتثري الحياة بالخير والجمال والفضائل، وتتناغم الحركة الإجتماعية، ويوجد المجتمع المسلم، الذي يستطيع ـ عن كفاءة واقتدار ـ أن يحمل الرسالة الخالدة.. ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون...﴾ فالكلمة والمعتقد والسلوك، هي التي تشكل الرؤوس الثلاثة لمثلث الحياة الإنسانية الناجحة...

والفن ـ في إطار هذا المفهوم ـ لا يمكن أن يكون مجرد إزجاء للوقت، وملء لفراغ الحياة، أو تسلية مجردة، وإنما

الفرد تعبير صادق عن العقيدة والحياة، وعن آمال الفرد والمجموع، كما أنه صياغة مثلى لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين البشر وبعضهم البعض، وبين البشر وما يحيط بهم من كائنات حيوانية ونباتية وجمادية، وبين دنيا البشر وأخراهم، وذلك بهدف اتساق مجرى الحياة. واتسامها بالعدالة والحق، والترابط والإخاء، حتى ترفرف رايات السعادة على الجميع، ويحظى الجميع بالأمن والرزق، وينعموا بالحرية والمحبة، وبذلك فإن الفن الأصيل تعبير عن تلك العقيدة، وذلك الواقع الأمثل، دون إهدار لقيمه الجمالية، وقدراته الإمتاعية، وهو أمر يكاد يجمع عليه المفكرون والنقاد والمؤرخون المتزنون في كل زمان ومكان، على الرغم من ذلك النشاز الذي يعتور مسيرة الفكر الإنساني من آن لآخر، لكن ذلك النشاز لا يلبث أن تطمره قوى الخير والصدق والفضيلة، وينتهي إلى العدم.

* * *

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي وظيفة أدب الأطفال من وجهة النظر الإسلامية؟؟

١ - تشكيل الوجدان المسلم

يرى غالبية علماء النفس والتربية، أن الكثير من عواطف الطفل ومشاعره تتشكل في الأعوام الحاسمة الأولى من عمره، بحيث يترسخ العديد منها في العام الخامس من العمر، ويظل الطفل يتلقف الخبرات من خلال ما يصادفه في حياته، وعبر حواسه وفكره ووجدانه، حتى يتكون لديه الرصيد الأساسي الذي يؤثر في مستقبل حياته، وفق سنن وعوامل أوجدها الخالق جل وعلا، والطفل كما نعلم يولد صفحة بيضاء نقية، أي «يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» كما جاء في الحديث الشريف.

والطفل يسمع القصص أو الحكايات على اختلاف أنواعها، يسمعها من أمه أو جدته أو مربيته في المنزل، وقد يسمعها أو يقرؤها في مدرسته (الروضة أو المرحلة الإبتدائية الدنيا)، ومن خلال هذه القصص يلتقط الطفل مواقف أو خبرات تشده إليها، وتلتقي تلك الخبرات والمواقف مع ما لديه من حصيلة سابقة، ويحدث بينه وبينها مقارنات أو مفارقات عقلية ووجدانية، ويتولد من هذا التفاعل خبرات جديدة مكتسبة، تستقر في وجدانه، وتفعل فعلها دون وعي كامل، وعلى مهل، وبذلك يتشكل وجدانه بما فيه من انفعالات وعواطف ومشاعر، وينعكس ذلك بالتالي على

سلوكه مستقبلاً. وهنا مكمن الخطورة، لأن الإنسان يستطيع أن يبدل أفكاره، ويترك فكرة من الأفكار إذا ضعف إقتناعه بها، ويتبنى فكرة جديدة اتصفت بقوة الإقناع والصدق، لكن التغيير يبدو صعباً، غاية الصعوبة، إذا كان الأمر يتعلق بالمشاعر والعواطف.. بالوجدان، فهي أمور نفسية لها من قوة التغلغل والتسلط، ما يجعلها عميقة الأثـر، شـديـدة التـأثير والرسوخ، والأدب ـ وخاصة القصة ـ بما فيه من قيم جمالية ومؤثرات وتشويق وجاذبية ينفذ إلى الوجدان ويشكله، أكثر مما ينفذ إلى العقل، ومن هنا تأتي أهمية الفنون بالنسبة لتشكيل وجدان الأطفال، وهو أمر أجمع عليه كبار علماء التربية في عصرنا، حينما قرروا أن الأدب يلعب الدور الرئيسي في البناء الروحي والنفسي للطفل.

والطفل من خلال الأدب المناسب الناجح، يحس بمشاعر البهجـة والانتعـاش والتعجـب، ويجرب نشـوة الإنتصـار والتفوق، أو يتمثل مشاعر الألم والحزن، ويدرك قساوة القهر والظلم، والشكل الفني للقصة بما فيـه مـن ألفـاظ منـاسبـة، وتراكيب بسيطة، وتكـامـل في الأداء الأسلـوبي، وعنـاصر للتشويق والجذب. سواء أكان الطفل يقرؤها أو يسمعها، نقول أن هذا كله يجعل الطفل يطرب لما في هذا الأدب من نسق ووحده وتوازن، ويستوعبها وجدانه، كما يتلقف عقله ما يستوعبه من ثقافة، ونتيجة لذلـك تتبـدى ملامـح تشكيلـه

الوجداني، فيما يقول من كلمات أو يسلك من سلوك، وفي استجابته للأحداث والمواقف ومختلف المؤثرات.

وإذا أردنا أن نساهم ـ بأدب الأطفال ـ في تشكيل الوجدان لدى الطفل تشكيلاً إسلامياً، فيجب أن نعرض للآداب والسلوكيات الإسلامية، من خلال القصص المؤثر والذي يعرض للبطولات والنماذج الفريدة، والقوى المحركة لما في الحياة من أنشطة. ونجسّد له فضائل الصدق والتعاون والعدالة وحب الخير تجسيداً واضحاً، بعيداً عن التجريدات التي يصعب فهمها على الطفل، وأن نقدم له الذات الإلهية في صورة يفهمها ويعيها باعتبارها ـ أي الذات الإلهية ـ مصدراً للخير والعطاء والعطف والرحمة وما إلى ذلك، وأنه هو الذي خلقه وأمده بالسمع والبصر، وأبدع له ذلك الكون من حوله، وأنبت له الزرع، وأنزل المطر، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة..

إننا إذا استطعنا أن نشكل وجدان الطفل على هذا النحو، نكون بذلك قد وضعنا الأساس المتين لحياته المستقبلية...

٢ - صبغ الفكر بالمنهج الإسلامي

إذا كان الجانب الوجداني في الطفل يحتل أولوية في إطار الأدب الإسلامي للطفل، فإنه لا يمكن فصل ذلك عن الجانب العقلي أو التثقيفي. لأن الوجدان والعقل يتبادلان التأثير، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، وكلما نما الطفل، إزدادت احتياجاته العقلية، وأصبح أكثر استعداداً لها، ومن الواضح أن الطفل يحتاج إلى «معلومات» تتصل بجوانب الحياة المختلفة، ونريد لهذه المعلومات أن تصل إليه عبر القصص أو الأناشيد أو الأغاني، مبرأة من خرافات العصر، مطهرة من زيف المدينة والغزو الفكري، فما أكثر «المسلّمات» أو الأفكار الزائفة، التي تُروَّج في مجتمعاتنا اليوم، وكأنها ميراث طبيعي من فكرنا وعقائدنا وتقاليدنا، مع أنها في الواقع تسللت إلى بلادنا في غفلة منا، عبر الثقافات المترجمة، أو في التصانيف التي كتبها رجال منا، وقعوا تحت تأثير الفكر الغازي المنحرف، وتلك المعلومات تتناول شتى جوانب الحياة الشخصية والعامة، وهي معلومات تتعلق بالسلوك والمرأة وبعقيدة وقيم الحق والخير والحرب، وتتعلق بالزي والاختلاط والمعاملات والعلاقات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، كما تتعلق بالعبادات والشعائر والأحكام وغيرها.

فواجبنا - ونحن نكتب أدب الطفل - أن نُنَقّي فكرنا من

الشوائب، ونبعد عنه الوثنيات والخرافات، ونـؤجـل المنهـج الإسلامي في طريقة التفكير والإستنتاج، مع مراعاة القواعد والأصول الضرورية لكل من فنون الأدب، وهـو أمـر ليس بالهين، ويجب أن نعترف بذلك دون خجل، فهناك القنوات العديدة التي تفرز المعلومات للطفل كل يوم حيث التلفاز والإذاعة والصحافة (وخـاصـة صحـافـة الطفـل المترجمة)، والكتب التي تصدرها للطفل جهات غير إسلامية، أو جهات محلية تنقل مناهج الفكـر الغـربي، وتحشـو رؤوس الأطفـال بالكثير عن نظـريـات النشـوء والارتقـاء، وحـريـة المرأة، ومغامرات اللصوص وقطـاع الطـرق، وخـزعبلات القـوى الخارقة المخترعة، بل أن بعض الكتب المقررة في كثير من بلدان العالم العربي والإسلامي، تطـرح هـذه المعلـومـات في الكتب الدراسية، التي يمتحن فيها الطالب آخر العام.

إن صبغ الفكر لدى الطفـل بـالمنهـج الإسلامـي عمليـة تكتنفها المشقة والصعوبة، لكنها تحتاج إلى دأب وإصرار، وتأكيد على أن النهج الإسلامي نهج صادق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه.

ويجب أن يعرف الطفل ان الله هو الذي يفعل ويقدر وينظم، وليست «الطبيعة»، وأن أمور الحياة تسير وفق نسق وسـنن إلهية، وأن الحقائق العلمية تتنافى أو تتصادم مع الحقـائـق الدينيـة، وأنـه ليس لله شريـك في ملكـــه، وأن

الإكتشافات والإختراعات العلمية لا يصح أن تكون سببا في ضعف الإيمان بالله، بل يجب أن تكون باب لمزيد من اليقين والثقة بالخالق البصير..

٣ - طبع السلوك بالطابع الإسلامي

من البديهي أن مد الطفل بالخبرات الوجدانية والعقلية يهدف أساساً إلى طبع سلوكه بطابع خاص، هذا السلوك يترجم عما في داخله من عقيدة، ويطبق ما استقر من أفكار، باعتبار أن هذه العناصر الثلاثة تساهم في إيجاد كيان واحد هو الطفل، الطفل بأبعاده الروحية والنفسية والعقلية. والبدنية أيضاً، والأمر هنا يحتاج إلى شيء إضافي لا يمكن تجاهله، شيء يجعل من الفنون والأداب المقدمة للطفل فعالية قوية، ونعني به القدوة.. وطفلنا المعاصر مظلوم، فقد يقرأ ويتأثر وينفعل، لكنه يتلفت حوله فيجِد أموراً تتناقض مع ما يقرأ، ومن ثم قد يفتقد القدوة في محيط الأسرة، أو في محيط المدرسة، وفي الشارع، وفي الكثير من إفرازات الوسائل الإعلامية، يجب أن نعترف أن القدوة الفاسدة، قد تدمر ما يبنيه المصلحون والمربون والمفكرون، وهي مأساة تحتاج إلى حل حاسم وإلى تعاون شتى الجهات المعنية بأمور الطفولة في عالمنا الإسلامي الشاسع..

لكن يبقى أدب الأطفال، وخاصة في القصة، أن يقدم

النموذج الإسلامي الواقعي للشخصية أو البطل، حتى ولو كان هذا البطل جنيّاً أو إنسيا أو حيواناً أو جماداً أو ملاكاً، أن يقوم ذلك النموذج وهو يتعامل ويعمل ويأكل ويتعلم ويجاهد ويتعبد ويتكلم ويتفق أو يختلف، وفق المعايير الإسلامية، وأن يصور الصراع بين الخير والشر بالأسلوب الذي يؤكد ويدعم سلامة السلوك الإسلامي، وتفوقه على ما عداه من أنواع السلوك المنحرفة أو المستوردة، وأن يكون مقنعاً ومؤثراً ومشوقاً في عرضه أو أدائه، لأن التناسق الوجداني والعقلي والسلوكي في الشخصية، يبرزها متكاملة قوية مقنعة، ويجب أن نوحي للطفل بأن التمسك بتلك السلوكيات المتميزةقد يسبب بعض المعاناة، ويحتاج لقدر من الصبر والتشبث، لكن النتيجة النهائية لذلك تحمل في طياتها البهجة والسعادة والنجاح، وتجعل من المؤمنين شخصية مرموقة ناجحة يرضى عنها الله، ويعتز بها الناس، وتحقق الأمن والإستقرار والنصر لصاحبها، وهو أمر يجد فيه الطفل متعة أي متعة، لأنه يسعى لمعرفة الصواب والخطأ، كي يحقق لنفسه الإطمئنان الداخلي.

والطفل عندما يتشكل على هذا النحو الفريد، يستطيع في مقابل الأيام أن يمضي في رحلة الحياة مسلحاً بالوعي والثقة، شجاعاً في مجابهة الزيغ والإنحراف، قادراً على التصدي لمغريات التسيب والإنفلات والإباحية، بعيداً عن نزوات التعصّب للجنس واللون، وفي مأمن من العقد النفسية التي

تهدم صمود الشخصية واتزانها.

وفي تراثنا الإسلامي العريق تفاصيل واسعة لكل انواع السلوك في شتى المواقف الحياتية، مدعمة بالقدوة والأحداث والمواقف التي لا حصر لها. وتناولت الإنسان في سلمه وحربه، وفي عمله وترفيهه، وفي جده ولعبه، وفي صحته ومرضه، وفي غناه وفقره، وفي وحدته واجتماعه، وفي حله وترحاله..

٤ ـ حب العلم باعتباره فريضة

وأدب الأطفال، يجب أن يحتفي ـ أيما احتفاء ـ بالعلم بمعناه الواسع، الذي تجلى بصورته الفذة في إطار التجربة الإسلامية الحضارية التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية.

وذلك تفيض بداهة غرس خاصية التفكير المنظم لدى الطفل، وإيضاح العلاقة بين التجربة والمشاهدة والإستنتاج، والوصول إلى النتائج، والوسائل التطبيقية للعلم، وحفز الطفل للتفكير والعمل وتوقع بعض النهايات لافتراضات معنية، وذلك كله من خلال قصة مثلاً عن عالم من العلماء، أو اكتشاف من الإكتشافات، أو رحلة من الرحلات، ولا مانع من الإهتمام بالقصص العلمي الخيالي، الذي يفتح الآفاق أمام عقل الطفل، وينمي قدراته الإبداعية، والتأكيد على دور المشيئة الإلهية، وعونها للبشر، وربط الحقائق العلمية وروعتها بخالق الكون، والسنن الكونية التي خلقها الله سبحانه وتعالى،

وأجرى الأمور على أسسها، شرحاً للآيات القرآنية التي تدعو العقل للتأمل والتفكير والنظر في بدائع صُنع الله.

ولا يقصد بـالعلم العلم الطبيعـي وحـده، فهنـاك العلـوم الشرعية وهي الاساس، وتضم تحت دوحتهـا الشـامخة الفقـه والعقيدة والتفسير واللغة والحديث والسيرة والتاريخ الإسلامي والآداب الإسلامية وغيرها. وهناك العلوم الأخرى التي تنظم الجغرافيا والفيزياء والطب والرياضيات والحيوان والنبات وما إلى ذلك من الأمور التي تتعلق بالحياة، وبالبيئة التي سخرها الله لنا. وفي تراثنا العربي والإسلامـي تطبيـق لـذلـك، لأن الناظر في صفحات الحضارة الإسلامية يرى حشداً من العلماء الإسلام، وفتوحات بـارزة في المجـالات العلميـة المختلفـة، شرعية وطبيعية، وكانت هذه النهضة العلمية مثالاً يحتذى في منهجها وأسلوبها، وتعاملها، أيضاً مـع التراث العـالمي الذي سبقها أو عاصرها، فتناولت ذلك التراث بمقاييسها الإسلامية بالنقد والتقييم، وبالإضافة والتعـديـل والحذف، ومـن هنـا نشطت حركة الترجمة من اللغات الهندية والفارسية واليونانية وغيرها، دونما تعصب أو تجنٍ، ولم يغفل المترجمون عن تراث الوثنيات والخرافات الذي تتنافـى مـع العقيـدة الإسلاميـة، فتركوه، ولم يحفلوا إلا بتفنيده، والدعوة إلى الحذر منه، ومن ثم فإن أوروبـا في عصر النهضـة لم تضـع يـدهـا على تـراث الإغريق واليونان والفرس والهنود إلاّ عن طـريـق تـرجمات

وتقييم علمائنا الأبرار، وكان أخطر ما نقله الغرب عنهم هو منهج البحث والتحليل والدراسة العملية.

ولا يخفى على المؤرخين المتصفين بالنزاهة من مفكري الغرب، ذلك الفرق الشاسع بين نظرة الإسلام إلى العلم، ونظرة الكنيسة إلى العلم، فقد كان الإسلام يحترم العلم ويؤاخيه في المسيرة الإنسانية، وفق منهجه الإلهي الصحيح، بينما اتخذت الكنيسة موقف العداء، والجحود للإنجازات العلمية، وطاردت العلماء والمكتشفين، وحكمت عليهم بالسجن والقتل أو الحرق، مما أدى إلى الصدام الرهيب بين الكنيسة وزعماء النهضة العلمية والفكرية في أوروبا، وإنجلى ذلك الصدام عن ضحايا وتجاوزات وعداء مستحكم، وما زالت آثار ذلك باقية حتى الآن، بل ما زال بعض مفكرينا يتبنون ذلك التصور الخاطىء جهلاً، ويحاولن أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى أغراضهم الخبيثة، باشعال الخلاف بين الدين والعلم، وهي ظاهرة لا وجود لها في حضارتنا الإسلامية، وتاريخها العريق.

إن قصص الأطفال ليس خيالاً كله، ولا خرافات كلها.. والطفل يكون مبتور الثقافة، معوج الشخصية، ما لم يستلهم تجارب حضارته الإسلامية، ويستوعب منجزاتها، ويعرف امتدادها وهيمنتها، ويلم بأعلام الإسلام في مجالات المعرفة المتنوعة، ويعرف أن مجالس العلم، ونشاط العلماء، لا يقل

أهمية عن ميادين الجهاد، وفتوحات القادة، فالعلم في نظر الإسلام فريضة، والآيات القرآنية العديدة، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، ووصايا العلماء والخلفاء تحمل الكثير من هذه المعاني القيمة.

٥ ـ تحديد مفهوم السعادة

إن الحياة المعاصرة التي نعيشها اليوم، قد سادها الكثير من الاضطراب والخلط، وغزت العالم الإسلامي قيم وافرة عمادها المادة والطمع والجشع، وأصبح الثراء أو جمع المال غاية كما بدت السيطرة والبطش والقوة والقهر عنواناً للمجد والعظمة، وغدت الأنانية أو الأثرة ذكاء وواقعية، بل فلسفة وسلوكاً، تأثراً بما ساد الغرب من فلسفات الميكافيلية والفرويدية والوجودية وغيرها، وهكذا تشوهت المثل العليا، وتغيرت القدوة، وأصبح الشباب يحلمون بنماذج شائهة هيمنت على عالم الشهرة مثل رجال المال والأعمال، وأبطال الشاشة. وزعماء الشباب الساخطين المتمردين المنحرفين، وصانعي الإنقلابات والثورات المدمرة، وبذلك تغير مفهوم السعادة الحقيقية.

والطفل اليوم يرى ذلك ويلمسه، ويشاهده في التلفاز، ويقرؤه في الصحف والمجلات والكتب، ويراه في مجتمعه، ويقبل عليه في نهم في الآثار المترجمة، ومما لا شك فيه أن هذه الثقافات تفعل فعلها في وجدان الطفل وعقله، وتتسلل إلى

خباياه النفسية وعقله الباطن، وتدفعه إلى ممارسات وسلوكات أبعد ما تكون عن القيم الدينية الصحيحة.

وواجب الذين يكتبون للطفل عموماً وللطفل المسلم خاصة، أن يواجهوا تلك الهجمة المدمرة، بوعي كافٍ، وفهم صادق، وأن يتسلحوا بألوان المعرفة التي تتعلق بالتربية الإسلامية وأصولها وقواعدها، وبمعرفتهم النفسية وأكثرها تأثيراً، في علاج هذه الظاهرة.

على هؤلاء الكُتّاب أن يغرسوا في نفوس الأطفال أن المال وسيلة لا غاية، وأن السعادة الحقة في أن نكسب المال من الحلال، وننفقه في الحلال، وأن العمل الجاد فضيلة، لها أعلى درجات السعادة، وأن الالتزام بالصدق والعدل والتعاطف والتعاون والإخاء، والقيام بالواجب نحو الله ونحو الآخرين، والقناعة والعفة والطهارة، كل ذلك يبعث في النفس اللّذة والنشوة والرضى، لأنه قربى إلى الله وطاعة، وهل السعادة الحقيقية غير ذلك؟؟

إن قصص علاء الدين ومصباحه السحري، لا تناسب الطفل المسلم، ولا تنمي نوازع الجد والإجتهاد فيه، وماذا تكون نتيجة ما يقرؤه أو يسمعه الطفل وهو يرى «الجني» يقول:

شبيك.. لبيك.. أنا عبدك وبين يديك»

ثم يحضر لعلاء الدين ما يتعشق من مال أو جواهر أو قصور في غمْضة عين؟؟ أليس أجدى من ذلك كله أن نعلم الطفل كيف يجِّد الإنسان ويعرق ويتعب وهو يبحث عن منجم من الذهب بدلاً من أن يقدم له ذلك الذهب ـ في غمضة عين ـ على طبق من الفضة؟؟ وقس على ذلك ما تحفل به القصص من مصادفات غريبة تتمثل في أوراق «اليانصيب»، والثروات التي تهبط فجأة من وصية ثري مات، أو هبة سخية يجود بها صاحب جاه أو سلطان، أو كنز مدفون في الأرض؟؟ أليس من الأفضل أن نعلمه كيف أن الجبال عرضت على الرسول ﷺ أن تكون ذهباً فأبى، وأن أنبياء الله كانوا يأكلون من كد يدهم، وأن تلك الأوهام التي تصور الإثراء السهل المباغت ليست هي القاعدة في الحياة؟؟ وأن السعادة الحقيقية في الجهاد والدأب، وفي التضحية والإيثار، وفي أداء الواجب وخدمة المجتمع، وفي مساعدة المخزونين والمتألمين والمحتاجين؟؟ ويستطيع كاتب الأطفال مثلاً أن يستفيد من الآيات القرآنية ومن الأحاديث الشريفة، في صياغة قصص تحمل معانيها، ولنضرب لذلك مثلاً، فلو ألّفنا قصّة للطفل تتناول في مضمونها معاني الحديث التالي: «من عاش آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها»، وحاولنا أن نبرز تلك الصورة، في مواجهة صورة أخرى لشخصية من الشخصيات

تحرص على جمع المال، فتظلم وتطغى، وتكذب وتزوِّر، ثم تكون النتيجة فقدان الصحة، أو ضياع الحرية، والحرمان من الحد الأدنى للقوت، فسوف يورث ذلك الندم، ويقدم العبرة من خلال الصور المتناقضة، وعبر النتيجة النهائية للحدث.

وهناك قصة مثل قصة يوسف عليه السلام، وما فيها من مغريات، واعتصام نبي الله بالصدق والأمانة والعفة والصبر، وتمسكه بالدعوة إلى الله حتى في سجنه، ثم النهاية الفذة التي جعلت منه أميناً على خزائن الأرض، ونال من التوقير والحب والتقدير ما لا يستطيع الوصول إلى عشر معشاره أصحاب الدسائس والمكائد.. ألا يشعر الطفل بالسعادة الحقيقية. وهو يتابع تلك الأحداث الحقيقية الشيقة المثيرة، التي تفوق في روعتها وتأثيرها أسمى درجات الخيال؟؟

إن تصوير السعادة بمفهومها الإسلامي الصحيح يجب أن يحظى بعناية الذين يكتبون للطفل، وقد يقول قائل أن كلمة السعادة كلمة تجريدية، وهي من المعنويات التي يصعب على الطفل إستيعابها وتصورها، ولكننا ـ رداً على ذلك ـ لا نطلب من الذين يكتبون للطفل أن يسجلوا كلمة السعادة المجردة بنصها، ولكننا نهدف إلى تصوير أحداث وشخصيات تعمق في وجدان الطفل وعقله الصورة الفاضلة للمتعة الروحية أو الرضى النفسي، دون ذكر لتلك المصطلحات.. وسوف يتمثل الطفل السلوكيات التي نريد دون أن تكون هناك ضرورة

لوضع « التجريدات » إلا في سن متأخرة..

وما ينطبق على السعادة، ينطبقَ على غيرها من مصطلحات الحياة المجردة الأخرى، كالبطولة والكرم والتضحية والنبل والوفاء بالعهد والعفة والعدل، إلى غير ذلك من الأمور المعنوية التي قد تتضح أو تفهم لدى الطفل، ولكن رموزها وأحداثها، يمكن أن تساهم في « تجسيد » تلك التجريدات، وتتمثل له في صورة شخص أو واقعة أو مغامرة أو تجربة، ذلك في المراحل الأولى من عمر الطفل، وكلما نما الطفل، ونما نفسياً وعقلياً، وزادت حصيلته من الخبرات الحياتية والثقافية، كلما استطاع أن يفهم تدريجياً تلك المعنويات أو التجريدات، بحيث تصبح أمراً سهلاً مستساغاً مفهوماً في مراحل الطفولة المتأخرة كما قلنا، وهذه هي وظيفة كاتب الأطفال المقتدر الذي يعرف كل مرحلة من مراحل العمر، ويقدم لها ما يوائمها أو يناسبها من أدب، بأشكاله الفنية المختلفة.

٦ - تنمية ملكة الخيال عند الطفل

ملكة الخيال فطرة في الإنسان، وهو يتخذ أشكالاً وأحجاماً شتى لعوامل مختلفة، منها الخبرات والتكوين العقلي والبيئة التي يولد فيها الإنسان، ويظل الإنسان محتفظاً في داخله بقدر من الخيال مهما تقدم به العمر، والخيال غالباً ما يختلط بالتصور أو ما نسميه بأحلام اليقظة، والطفل الصغير تكون

خبراته العقلية محدودة، ومن جانب آخر فإن إمكاناته الخيالية غير محدودة، على النقيض من الرجل الناضج ذي الحصيلة الوفيرة من الخبرات والثقافات. نجد أن ملكة الخيال قد ضمرت عنده إلى حد كبير، وحل محلها نوع من التفكير المتصل الذي يضع صورة «متخيلة» لما يمكن أن يكون عليه وضع من الأوضاع، ويستعمل في هذا التصوّر أو التخيل ما يعرفه من علم وتجربة، وبصر وبصيرة وقوى روحية وإبداعية لا يمكن تحديدها تماماً، وهو نوع كما قلنا من أحلام اليقظة، كالمهندس الذي يتصور أو يتخيل بناء مبتكراً، أو الروائي الذي ينظم حياة خاصة لفرد أو جماعة، من خلال قصة أو مسرحية، والقائد الذي يضع تخطيطاً لمعركة مقبلة من المعارك الحاسمة، والفيلسوف الذي يضع هيكلاً فلسفياً يعبر عن فكره الخاص، وهكذا نرى أن الخيال يظل ملازماً للإنسان منذ مولده وحتى نهاية عمره، مع اختلاف في الكمية والنوعية والمعقولية.

والخيال ضرورة، يتمثل ذلك في عباس بن فرناس عندما وضع لنفسه أجنحة وحاول الطيران فسقط جريحاً، ثم يمتد حتى يشمل المحاولات الأولى لصنع الطائرة، ويبلغ مدى بعيداً في سفن الفضاء، فالخيال إذن ضرورة ألهبت خيال الشعراء والعلماء والفلاسفة والمصلحين، وهي - كما نرى سمة إيجابية، وما أكثر ما تحول الخيال إلى واقع أو حقيقة. ربما يمكننا القول أنه بداية الإبداع الفني والعلمي.

وكاتب أدب الأطفال لا يستطيع أن يتجاهل تلك الطبائع النفسية والعقلية لدى الطفل، وعليه أن يحاول تنمية الخيال وحمايته من الزيغ والضلال، أو بمعنى آخر توظيف ذلك الخيال في تكوين «الشخصية» المتزنة للطفل، ومدها بالزاد الروحي الذي لا غنى عنه، الزاد الذي يكمن في تراثنا الإسلامي العظيم.

والطفل في صغره يحادث الجماد والحيوان والدمى وكأنها بشر تفهمه ويفهمها، فمن جعله يفعل ذلك، ويحرص عليه، ويسعد به، والطفلة الصغيرة تتناول عروسها وتقبلها وتحتضنها وتناغيها تماماً كما تفعل الأم مع وليدها، بل تحاول أن تسقيها وتطعمها، وتعاتبها وتعاقبها.

والطفل يخترع الحكايات، ويروي عن نفسه قصصاً لا تحدث في الواقع، ويستطرد في سرد تفاصيلها بحماس غريب، ويفرغ فيها ما يعتمل في نفسه من أحلام وأمنيات وخيال، وكما يتصور أحياناً أنه يطير في الهواء أو يسبح في البحر، أو يهزم وحشاً من الوحوش، أو يلتقي بجني أو عفريت، ويستفيض في ذلك الكثير من المغامرات المخترعة.. لماذا يفعل ذلك؟؟

وعندما تروي الجدة أو الأم للطفل قصصاً عن السحر والسحرة، وعن الجنيّات (Fairy tales)، يجلس متسمراً يستمع

إليها في شغف، ونفس الشيء عندما تبسط له قصصاً عن الحيوان مأخوذة من « كليلة ودمنة » ومبسطة، أو منقولة عن التراث الشعبي، ويتابع الطفل بخياله الثعلب وهو يتحدث ويمكر. والسلحفاة وهي تخطط وتدبر، حتى تنتصر على الأرنب، والغراب وهو يروح ضحية الخديعة، فتسقط منه قطعة الجبن، وغير ذلك من قصص الحيوان والجمادات، يتلقفها الطفل في شغف، ويستمع إليها بكل حواسه، فتفتح أمامه آفاقاً واسعة غنية بالكثير من الصور والمخلوقات والأحداث، وتفعل تلك الأشياء فعلها في نفسه ووجدانه وفكره، وتنعكس على ممارساته ومعتقداته ومشاعره..

إن الطفل - كما يقول علماء النفس - يبني لنفسه عالماً من الخيال، ويحاول باستمرار تنميته، ويلح في طلب المزيد من الحكايات التي تساعده في ذلك، بل إنه يبكي عندما نرفض أن نحقق له رغبته في سرد القصص المناسبة له.

لكن ما أكثر ما أسي إستغلال الخيال في أدب الأطفال، وخاصة في الغرب، فنرى مفكراً مثل « بيير طفيه » يقول في مؤتمر « نيس » العالمي للكتاب: « خيال الأطفال أصيب بالمرض بسبب الإعلانات، وحلقات الإذاعة والتليفزيون ومغامرات السوبرمان، وبسبب تزييف الكبار للخيال وتحويله إلى الإثارة ».

وتلك هي القضية الخطيرة، التي لم يعطها تجار الكلمة المطبوعة حقها من الإهتمام، لقد ملأوا قصص الأطفال الخيالي بالإثارة والمفاجآت والقيم المريضة، وانحرفوا بأمزجتهم ونفسياتهم، حتى أدمن قطاع كبير من الأطفال هذه النوعيات وتشبثوا بها، لأنها تشدهم إليها بقوة، وتستولي على مشاعرهم، وقد زعم هؤلاء الكتاب المنحرفون أن الغاية من أدب الأطفال هو تسليتهم وإمتاعهم ومؤانستهم ولا شيء غير ذلك، ونسوا أن الطفل يتمثل ما يقدم إليه من أحداث، ويترسم خطاها، ويعيش في دنيا من الوهم القاتل، الذي لا يمده بخبرات من الحياة والتاريخ. ولا يجعله يقترب خطوة من الواقع الذي يعيش فيه، ويقع الطفل في عزلة مرضية، وأحلام مدمرة تورثه العديد من العلل النفسية، وتقعد به عن السير في ركاب الحياة السوية.

إن الخيال ضرورة.. لكن كيف يكون الخيال تربوياً بنّاء؟؟ تلك هي القضية، وجنوح بعض كتاب الغرب إلى هذا الشطط مرتبط بفلسفة «الفن للفن» التي يروج لها بعض المفكرين والنقاد في أوروبا، وفي بلادنا الإسلامية.[1]

ولكي يؤدي الخيال دوره في أدب الأطفال يجب أن يراعى الآتي:

---

(١) انظر كتابنا «آفاق الأدب الإسلامي».

١ - مراعاة نفسية الطفل، والمؤثرات التي تفعل فعلها فيها، والنتائج المترتبة عن قصص الرعب والخوف والصدف المثيرة، والمفاجأة التي لا ترتبط بمنطق.

٢ - ربط الخيال بهدف عالٍ، يثري خبرة الطفل وثقافته، ويوسع آفاقه، ويساهم في إنماء قدراته الإبداعية.

٣ - أن يغرس الخيال نوعاً من العلاقة بين خبرات القصة والخبرات الإنسانية العامة.

٤ - إرْتباط الخيال بما هو صحيح في سنن الكون وبما هو ممكن أو جائز أو نسبي.

٥ - يدخل في نطاق الخيال ما يشبه المعجزة أو الكرامة، في إطار الإشتراطات المعروفة.

٦ - يمكن التعرض للسحر بناء على ما ورد في القرآن الكريم، وعلى أساس التفسير الديني الصحيح له.

٧ - إن معظم ما نقدمه للطفل من قصص - حتى ولو كان واقعياً صرفاً - يثير لديه خيالاً لا حدود له، وقد يختلف ذلك الخيال في اتجاهاته ومداه من طفل لآخر، ولهذا فإن الكثيرين من الدارسين يرون أن القصص المقروءة أو المسموعة، توحي بخيال أشمل وأخصب، على النقيض من القصص المصور أو المشاهد في التلفاز مثلاً، فهو يحدد خيال الطفل، ويقلل من تنوعه وامتداده، وكاتب الأطفال البارع

يمكنه أن يستثير خيال الطفل وينميه بأسلوبه المحكم، وإيحاءاته القادرة.

فليس من الضروري إذن أن نقدم القصص الخيالي دائماً للطفل كيما نثري خياله، ولكن القصص الواقعي نفسه يمكن أن يؤدي نفس الوظيفة إذا ما صيغ باقتدار.

٨ - إن جرعات القصص الخيالي يجب أن تتناقص مع نمو الطفل العقلي، وازدياد خبراته، فكلما ازدادت سنوات عمر الطفل الطبيعي، كلما مال نحو القصص الذي يرتبط بالبيئة والواقع.

★ ★ ★

خلاصة الأمر أن الخيال ضرورة، وأن الطفل يقبل عليه بشغف في السنوات الأولى من عمره، وأن للخيال المؤثر أسلوب في الأداء، وضوابط في التفاصيل، ووظيفة أساسية في التربية واكتساب الخبرات، والنمو النفسي والوجداني والعقلي لدى الطفل، وهذا يجعل مهمة الذين يكتبون للأطفال مهمة صعبة، تقتضي منهم الإلمام الكافي بنفسية الطفل، وتطوره العقلي، وإحتياجاته الروحية والبدنية والسلوكية.

٧ - إيجاد التوازن النفسي

أدب الأطفال القائم على أسس إسلامية وعلمية سليمة يلعب دوراً كبيراً في خلق التوازن النفسي لدى الطفل، ويحميه من العلل النفسية الكثيرة التي تتمثل في:

- مشاعر الخوف
- سمات القلق
- السلوك المتردد
- الإنطواء والعزلة
- الكوابيس المزعجة
- اللعثمة والتأتأة.. ألخ
- السلس البولي
- العدوانية
- الانحراف السلوكي بشتى ألوانه.. ألخ

وقضية التوازن النفسي شائكة ومعقدة، لأنها ترتبط بعوامل عديدة أخرى غير الأدب مثل الوضع الأسري، والعلاقة بين الزوجين، وبين باقي أفراد الأسرة، والقدوة الإجتماعية داخل البيت وخارجه، بل والسلامة البدنية للطفل أيضاً، والمستوى الثقافي والأخلاقي للمخالطين للطفل، لكن يبقى أدب الطفل وسيلة فعالة لتوقي العلل النفسية، أو تخفيف ما ينتاب الطفل منها، بل علاجه الحاسم، وعلى الرغم من أن

الحياة ليست خيراً كلهـا ، وليسـت بهجـة وسعـادة صـافيـة خالصة ، إلا أن كاتـب أدب الأطفـال عليـه أن يملأ قلـب الطفل بالأمل والثقة والمحبة والفرح ، وأن يشير في الوقت نفسه إلى ما في الحياة من بعض المنغصات بصورة إجمالية ، توحي بالحذر ولا توحي باليأس والهلع أو الجزع الشديد ، إذ من المفيد والضروري أن يتفهم الوضع الحقيقي للواقع حتى لا يُصدم في قابل الأيام ، وحتى يتخذ موقفاً إيجابياً من الأمور التي تسيء وتؤلم ، أو ترمز إلى الشر والفساد ، والمعالجة الأدبية تحتاج إلى حرص ودقة وفهم لطبيعة الطفولة ، والطفل يسمع عن الموت ، ويرى الأحزان والدموع ، ويدرك بعض الممارسات الجائرة الظالمة ، وقد يعاني من الحرمان والتجاهل والحيف ، وقد يفهم الأمور فهما سطحياً أنانياً ويفسرها بسذاجة ، ويخرج من تصوراته الخاصة بأحكام قد لا تكون صحيحة أو عادلة ، لكنه يؤمن بها ، ولا يشك في صدقها ، وهنا يأتي دور القاص أو الكاتب أو الشاعر ، في معالجة تلك القضايا الحساسة بتمثل حقيقي لها ، وإدراك لأبعادها النفسية والتربوية ، والإغراق في تصوير البشاعة والقبح والظلم للطفل أمر يضر به ضرراً بليغاً ، ويصبغ نظرته إلى الحياة بما يشبه اليأس والتشاؤم والخوف ، ويحد من آماله الواسعة ، وأحلامه الوردية ، ويصيبه بالخلل العاطفي .. وقصص « الجنيَّات » بما فيها من أسلوب مباشر بسيط ، وما تشتمل عليه من خصال حميدة كالأمانة والشجاعة

والصدق والتعاون، وما تنبض به من أحداث متسلسلة شيقة، وبما في شخصياتها من قضاء وتقابل، كل هذه المحتويات تثري عالم الطفل، وتملؤه بالبهجة، وبحب الخير والجمال، وتزيد من خبراته وتجربته، وتساهم في إيجاد التوازن النفسي لديه، وقد لوحظ أن الأطفال يحبون هذا اللون من القصص، ويقبلون عليه بشغف، وهم يسمعونه من جداتهم وأمهاتهم في بداية حياتهم، ويهيمون في عالمه المسحور منذ الأزمنة السحيقة.. وإذا إستطاع أدب الأطفال أن يوحي للطفل بالعقيدة الدينية الصحيحة، ويدله على طريق الخير والشر، ويعرفه مواطن الصواب والخطأ، ومنازل السعادة والشقاوة وأوعز إليه إلى ما يجب فعله، إستطاع الطفل أن يستشعر الإطمئنان والثقة، وأن يحظى بالتوازن النفسي المطلوب، وينجو من العلل النفسية التي يفوق ضررها العلل الجسدية.

٨ - ترسيخ العقيدة

إن حجر الأساس في التوازن النفسي للطفل، يتمثل في العقيدة الراسخة المستقرة، وهي الإيمان بالله ورسله وكتبه وشريعته، والأمر ليس بالغ الصعوبة كما يتوهم بعض الدارسين والمربين، فطبيعة الحياة أن يكون لكل صنعة صانع، ولكل تجمع قائد، ولكل أمة حاكم أو سلطان أو ملك، وأن حركة الكائنات لا تتم إلا بفعل فاعل، فليس صعباً إذن أن

يعي الطفل، ولو بصورة غامضة في البداية، أن هناك من أوجده وأخرجه إلى هذا الوجود، وأن ذلك الخالق رحيم كريم، وأوجد لنا الحيوانات والزرع والماء والطعام والصحة والمال، وكل ما في الحياة من نعم لا تعد ولا تحصى.. وأنه يحبنا ويجلب لنا الخيرات، ويحفظنا من الأخطار، وأنه بعث إلينا بمن يعلمنا ويرشدنا ويهدينا إلى طريق الخير والسعادة.. ومن الواجب علينا أن نحبه ونشكره..

ومما لا شك فيه أن الطفل بكثير من التساؤلات حول هذه النقطة بالذات، وأنه ينتظر إجابات شافية مقنعة، ومشكلة الطفل الصغير في سنيه الأولى أنه يريد بعض المعنويات مجسدة، وقد استطاع التربويون وعلماء النفس أن يعالجوا هذه النقطة بغير قليل من الحنكة والدراية، طبقاً لمراحل العمر المتتالية عند الطفل، ومن الضروري لكاتب أدب الأطفال أن يستنير بهذه الدراسات، كيما يحمي التصور العقيدي لدى الطفل من الخلط أو الغموض..

وترسيخ العقيدة يتبعه بالضرورة، التمكين لقيم الحق والخير والجمال والفضيلة والحرية، ولهذا نرى أن ديننا الإسلامي الحنيف مثلاً قد أوصى بتعليم ابن السابعة الصلاة، وضربه إذا تركها عند العاشرة، وهو إلزام ضروري مبكر لشعائر العبادات، ينعكس على سلوك الطفل وانضباطه وإدراكه للمسئوليات منذ نعومة أظفاره، وليس غريباً أن ينشأ الطفل

المسلم وهو يستظهر قصار السور : منذ الثالثة من العمر ، ويحفظ بعض المأثورات والأدعية ، وبعض حوادث السيرة ، أو الأناشيد الدينية ، كل ذلك قبل الخامسة أو الرابعة ، وبديهي أن يردد الشهادتين ويستمع لقصة أصحاب الفيل وفرعون موسى وغير ذلك من القصص الديني الذي يقدم مبسطاً سهلاً مفهوماً . .

واصطحاب الأطفال إلى المساجد ، وحتى ولو لم يفهموا إلا القليل مما يقال في الخطبة أو الدروس الوعظية ، له كبير الفائدة ، إذ يدركون بحواسهم ما في المسجد من هدوء ونظام وآداب وتآلف ومحبة ، ينطبع في أذهانهم ، ويترك بصماته على مستقبلهم ، فاذا ما كبروا أمكنهم أن يستوعبوا الكثير من القصص الوعظى الذي يقال ، والآداب التي تقدم لحد ما ، وقد يتساءلون حول ما يسمعون أو يتطوع الأب ببعض الشرح ، فتنمو ثقافتهم وخبراتهم ، ويزداد ترسيخ العقيدة في عقولهم . .

إن أدب الأطفال يجب أن يعنى بالدرجة الأولى بالجانب العقائدي ، وأن يقدم للطفل ذلك في نماذج بشرية تتحرك في الحياة ، أو أحداث ملفتة تجري على أرض الواقع أو في عالم الخيال ، وعلى ألسنة الطيور والحيوانات والجماد ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهوا تسبيحه ﴾ ، وأن يوعز إلى الطفل بأن قوة العقيدة وسلامتها ، هي مصدر الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، وهي سبب النجاح والتوفيق

والسلامة، وأنها الغاية من الوجود، وارضاء الله، واكتساب جنته، لما تحركه فينا تلك العقيدة من مشاعر وعواطف، وتبينه من أفكار، وتعكس من سلوك نظيف شريف، يأتي بأفضل الثمار بالنسبة للفرد والمجتمع.

٩ - فهم الحياة

الطفل شغوف بمعرفة ما حوله، وفي البداية يحاول التعرف على ما يصادفه من خلال وضعه في فمه، دون تفرقة بين ما ينفع وما يضر، أو بين ما هو مقزز وما هو مستساغ، ويستخدم مختلف حواسه وخاصة أذنيه وعينيه ويديه وغير ذلك بصورة تدريجية. المهم أن الطفل يحاول فطرياً أن يكتسب الخبرات، بوسائله البدائية، ويأتي دور الكلمة» ـ والقصة بالذات ـ لتلعب دوراً بارزاً في هذا المجال، وأدب الأطفال ـ كما قلنا ـ ليست وظيفته مجرد التسلية والمؤانسة، بل أن دوره الأساسي هو مد الطفل بالثقافة والخبرة، وفقاً لتطوره العقلي والنفسي، فالطفل إذا ما تُرك بغريزته قد يفسر الأمور والعلاقات تفسيراً خاطئاً، ويغرق في متاهات من التصورات الباطلة، وأدب الأطفال الصحيح إذا ما أدى بالأسلوب السليم. كان تنمية لمدارك الطفل. وعاصماً له من الإفراط في التخبط والضلال.

والحياة بما فيها، تثير العديد من التساؤلات الصامتة

والناطقة أيضاً أمام الطفل، وفهم نفسية الطفل، من خلال الدراسات المتأنية التجريبية يساعد في معرفة أهم القضايا التي تشغل باله، ومن ثم يكون الأدب المرحلي للأطفال، متجاوباً مع احتياجاته العقلية والوجدانية، وبذلك يحصل الكثير من الخبرات والثقافات التي تكشف تدريجيا غموض الحياة، وتفض مغاليقها، فيتيسر له قدر من الفهم يبعث السعادة والطمأنينة والثقة في نفسه..

فالطفل في سن الرابعة يحب اللعب بشغف، ويميل لمشاركة الآخرين، ويمكنه تقبل القصص ذات العقدة البسيطة. وله القدرة على ربط الأفكار، وفهم العلاقات المتبادلة في أخف صورها، ويظن أن الأشياء والحيوانات لها دوافع ورغبات مثله. وفي سن الخامسة يتعلق الطفل بالقصص التي تمده بالمعلومات، كما يستمتع بالقصص التقليدية التي تشرح أحاسيسه، وفي السادسة يزداد حب الإستطلاع لديه، وخاصة فيما وراء بيئته، ويسهل عليه تعلم القراءة والكتابة، ويكثرون من التساؤلات، ويتخيل عالم ما وراء الطبيعة، أو الغيبيات، وفي الثامنة والتاسعة من العمر مثلاً، يصبح الطفل أكثر قدرة على التركيز والإنتباه، وأشد حساسية، وأكبر رغبة في التعاون مع الآخرين، كما يلاحظ نمو شعوره بما يسمى بالضمير، ويتعشق حكايات الألغاز والفوازير، والأسرار والأشباح، ويهوى قصص البطولة والتراجم والسير، وخاصة إذا حسن سردها،

وتلاحقت أحداثها .

وفي سن العمر التالية ، يتلهف على القصص العلمي ، ويقل اهتمامه بالخيالي منها ، كما يحب قصص المغامرات والحروب والأحداث البوليسية ، ويحاول إتخاذ موقف من كثير من أمور حياته الخاصة والعامة .

وما دام الطفل في مراحل عمره المختلفة يحاول جاهداً ، وبشتى الأساليب ، التي تتوافق مع مرحلته العقلية ، أن يكشف غموض الحياة . ويفهم أسرار حركتها ، كما يطرح الأسئلة التي تقلق أو تلح عليه ، فعلى كتّاب أدب الأطفال ، تنظيم الإحتياجات العقلية والنفسية للطفل ، بعد حصرها ، وتضمينها في أدب سلس سهل متقبل ، وعرضها بصورة أخّاذة ، مستخدمين فيها مغريات الإخراج والتشويق ، في مساهمة بناءة لتمكين الطفل من فهم الحياة ، وما فيها من بشر وحيوانات ونباتات وجمادات وظواهر طبيعية ، والتركيز على العلاقة بين الخالق والمخلوق ، وتأمين الإحتياجات الروحية النفسية بالذات للطفل ، مع عدم التعويل على التفسيرات الخرافية والوثنية لحقائق الحياة وعناصرها ومظاهرها ، ولا بد من تحديد الرؤية دون خلط بين الأشياء ، وإنارة الجوانب المظلمة في علاقات البشر وانحرافاتهم ، بالأساليب المناسبة ، وبالجرعات الصحية ، حتى لا يستبد به القلق ، أو يستولي عليه اليأس ، أو يطارده الفزع والرعب .

أمر آخر لا يقل أهمية عن قضية فهم الطفل للعالم من حوله، ونقصد به. بلورة الصورة المثلى للحضارة الإسلامية، كنموذج واقعي فريد، اتسم بالتكامل الفريد، إذا ضمت بين جنباتها قيم الحب والخير والعـدل والصـدق والشجـاعـة، كما حفلت بتشجيع العلم، واحترام التشريع، وبغض كل ألوان العصبيات والعنصريات: وقدمت للبشرية مجتمعاً سعيداً ينعم بالكفاية والعدل والكرامة، وكانت حضارة نظيفة في وسائلها وغاياتها، وفي حربها وسلمها، ويرتبط بذلك الموضوع أيضاً ما نطلق عليه «المدينة الفاضلة» أو عالم الغد الأفضل، فلسنا من أنصار التصورات الفلسفية الغربية، سواء لدى الأقدمين أو المحدثين من الفلاسفة، ولكن عالمنـا الأفضـل، أو مـدنيتنـا الفاضلة كمسلمين، لا تخرج عن إطار التصـويـر الإسلامـي الصحيح للفرد والجماعة، ولحركة الحياة ونموهـا وتقـدمهـا، والعمل على إيجاد مجتمع إسلامي، تخفق عليه راية التوحيد. وينعم فيه الجميع بالكفاية والعدل، وبالحب والإخاء والمساواة، وبالحرية وتحرير الطاقات الإبداعية والفكـريـة الخلاَّقـة مـن الخوف والتردد: وإعطاء «فضيلة» العمل حقها من التقدير والتشجيع، وقمع قوى التكاسل والتواكل والإستغلال، ذلك هو المجتمع الفاضل الذي يجب أن يحلم به الطفل، ويجاهد في سبيل تحقيقه، تنفيذاً لمبادىء الإسلام. ودعوة الحق والخير التي حملها إلى البشرية نبيِّنا المصطفى ﷺ.. ذلك هو مقصدنا.

. أن يفهم الطفل الحياة من حوله. فهماً سلساً مبسطاً، على أسس من الصدق والعلم.. في إطار الحقيقة دون زيف..

وأن يكون مثله الأعلى في المقارنة، ومقياسه في الحكم على الأشياء هو الإسلام..

وأن يظل يحلم بالمجتمع الإسلامي الرشيد، ويجاهد في سبيل إقامته على الأسس الصحيحة..

١٠ - بعث مشاعر الوحدة الإسلامية

لقد تعددت الإنتماءات في دولنا الإسلامية بل والعربية، ولم يعد غريباً أن نرى دولة إسلامية تحارب العدو، ونرى أخرى تصادقه أو تتآزر معه، بل نرى صبغاً من العلاقات الشائنة بين دول إسلامية تتعادى وتتحارب، فتسيل الدماء أنهاراً، وبذلك يتمزق شمل «الأخوة الإسلامية»، وتتعثر قوى «وحدتها»، ويرى الطفل، عندما تنمو مداركه، تلك الصورة القاتمة لواقع الأمة الإسلامية، فترتسم في ذهنه علامات تعجب واستفهام كثيرة. وتنتابه الشكوك والوساوس، ويتخبط حائراً بين ما يتعلمه في المدرسة، وما يشاهده من أحداث مؤسفة، وإحباطات مؤنسة، إن الإيمان بالوحدة الإسلامية فريضة.....

والنعرات الإقليمية والعرقية التي تضاد الوحدة الإسلامية

خطيئة.. فكيف يتصرف الذين يكتبون للطفل في هذه القضية الشائكة؟؟

أولاً: عليهم أن يقدموا الأدلة الدامغة من واقع الحضارة الإسلامية الزاهرة، وتاريخها العظيم على حقيقة هذه الوحدة، وارتباطها بعقيدة الإسلام.

ثانياً: بعث النماذج المعبرة عن هذه الوحدة، متمثلة في الحكام والقادة والعلماء، الذين واجهوا الاحداث التاريخية، أو شاركوا فيها، حفاظاً على الكيان الإسلامي، وفي مواجهة الزحوف العدوانية. سواء أجاءت من الشرق أو الغرب.

ثالثاً: إبراز التجاوزات المعاصرة والمضادة للوحدة الإسلامية بأسلوب واضح مقنع، وبطريقة يبعث على الأمل في المستقبل، واعتبار تلك التجاوزات عللاً طارئة يمكن علاجها، والتخلص من آثارها، متى صدقت النوايا، وصلحت النفوس، وعاد الناس إلى أصول دينهم الحنيف.

رابعاً: تعريف الناشئة بدول العالم الإسلامي وثرواته ومشاكله، وكتابة القصص والمؤلفات المناسبة به، والتركيز على قصص الجهاد في فلسطين وأفغانستان وغيرها.

خامساً: الإهتمام بدعم الإخاء الإسلامي خاصة، والإنساني عامة، وترجمة المناسب من أدب الأطفال من لغات الدول الإسلامية (غير العربية) إلى الأدب العربي، ونشر قصص البطولات الإسلامية المعاصرة في الجزائر والهند وليبيا وأفريقيا وغيرها. أثناء الهجمة الإستعمارية، وحركات الإستقلال والتحرر من نير المغتصبين:

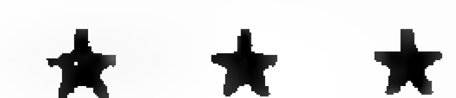
سادساً: تنقية التراث المعاصر من كل ما يسيء إلى العلاقات الإسلامية، او يثير الأحقاد والإِجن، أو يبعث على القطيعة والفرقة.

سابعاً: تطوير أساليب الدعوة الإسلامية بما يتناسب وطبيعة العصر الذي نعيش فيه.

ثامناً: قد يكون من الأفضل تجنب بعض المشاكل التي تتناسب مع مستوى النضج والتمييز لدى الطفل؛ مع التركيز في الوقت نفسه على الجوانب المشرقة التي تملأ قلب الطفل بالإعتزاز والفخر، وتزيد من مشاعره الإيجابية سياسياً وعقائدياً.

تاسعاً: تشجيع نشر اللغة العربية ـ لغة الإسلام الأولى ولغة القرآن الكريم ـ بين الشعوب الإسلامية، وتقديم الحوافز والمنح السخية في هذا المجال.

عاشراً: عدم السماح بترجمة الآثار الأجنبية الخاصة بالأطفال والتي تتناقض مع ما نؤمن به من عقيدة دينية، او تسيء إلى قضية الوحدة الإسلامية، أو تنحو بأطفالنا منحى الأنانية والتقوقع، أو تقلل من شأن انتمائهم الإسلامي.



ومن الواضح أن قضية «الوحدة الإسلامية» تحتاج إلى مستوى من الوعي والإدراك قد لا يتوفر إلا في مراحل الطفولة المتأخرة، ولكننا نستطيع أن نتسلسل مع الطفل، ونحن نعمق فيه مشاعر الإنتماء الأسري، والإنتماء للقرية أو المدينة أو الإقليم أو الدولة، ثم نمد ذلك الإنتماء إلى ما هو أوسع عربياً وإسلامياً ثم إنسانياً، بالأسلوب الميسر المبسط، بل وبالتعبير الغير مباشر ثم المباشر. وهذا يعتمد على مقدرة الكاتب وإيمانه وموهبته. ونحن نرى في آداب الأطفال شبيهاً لذلك، وخاصة في اليابان وروسيا وفي عدوتنا إسرائيل وفي أمريكا وغيرها، ونرى نفس التجربة في قصص الأطفال الديني بأوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر بالذات.

إن تضارب الإنتماءات في العالم العربي والإسلامي ـ للأسف الشديد ـ تحد من الإنطلاقة الكبرى نحو تثبيت وتعميق مشاعر الوحدة الإسلامية، التي هي في واقع الأمر كسب سياسي

إقتصـــادي كبير، فضلاً عـــن كـــونها إعلاء لقيم الإسلام وحضارته العريقة، وتأكيداً لنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

١١ - توضيح مفهوم الحب

الحب بالنسبة للطفل لمسات حانية، ومناغـاة ومـداعبـة، وإشباع لرغباته في الطعام والشراب والدمى، كما يستشعره الطفل أيضاً في حمايته من الأخطار، والسهر على راحته، وإيثاره عما عداه..

الحب اذن عاطفة هامة ضرورية للطفل، سواء من الناحية النفسية أو البدنية، وأي احساس للطفل بحرمانه منه، يورثه الكثير من الإضطرابات والعلل النفسية والبدنية.

وبعد أن ينمو الطفل، ويشتد اختلاطه وارتباطه بالمجتمع من حوله، ويزيد محصوله من الخبرة والثقافة، ويشاهد الكثير من الوقائع والأحداث، يفهـم تـدريجيـاً أن للحـب معـاني أخرى، تتصل بعلاقة الرجل بالمرأة، ولا يخفى عليه ما يتصل بذلك مـن أمـور تبعـث على الخجـل، وتستـوجـب الحذر والكتمان، إنها قضية تمس «الجنس»، وعلى الرغم من أن الطفل في معظم مـراحـل عمـره ـ حتى العـاشرة أو الحاديـة عشرة ـ لا يدرك المعنى الحقيقي للعلاقة الجنسية، إلا أنه يفهم

من خلال ما يجري ويحدث أمامه، أن هناك أمور شائكة وقد تكون شائنة ومخجلة، وترتبط بالمعصية أو الخطيئة، وتستوجب سخط الله واشمئزاز الناس، ورفض المجتمع، ويتعجب الطفل: لماذا يقدم بعض الأفراد على ارتكاب شيء مؤسف كهذا، عندئذٍ تتشوه كلمة العشق والحب في عقله، ويصبح للحب من هذا النوع مدلولاً خاصاً يبعث على الخوف والقلق بل والعار أحياناً.. فكيف يتناول الذين يكتبون للأطفال قضية الحب تلك!؟

أولاً: التأكيد على أهمية الحب وضرورته في الحياة لهم ولغيرهم.

ثانياً: الحب عاطفة طاهرة دائماً.

ثالثاً: الحب الحقيقي يقتضي التقبل والعطاء، أي تحب الناس كما يحبونك.

رابعاً: إن الله يحبنا، وعلينا أن نحبه ونحب رسوله.

خامساً: الحب لا تعني الأنانية، بل يسمو ويعظم إذا أعطينا وضحينا.

سادساً: نحن نحب الأم والأب والأخوة والأخوات، وهم لذلك يحبوننا ونحب الأصدقاء والجيران والمعلمين، ولا نكره إلا الشر والفساد والظلم والغدر والخيانة وما إلى ذلك من السلوكيات والصفات الأخلاقية الذميمة.

سابعاً: نحن نحب الوطن الذي ننتمي إليه، والحيوانات التي تقدم لنا مختلف النعم، والمزروعات التي نأكل منها ونستظل بظلها، ونستفيد منها على أوجه عديدة.

ونحب أخوتنا في الله والعقيدة.

ولا نكره من يخالفوننا في العقيدة، ولكن نتمنى لهم الهداية ونأمل أن تتسم علاقتنا بهم بالتعاون وحسن الجوار، وتبادل المنفعة التي تعود على الجميع بالخير.

ثامناً: والرجل يحب المرأة في إطار الشرعية أو الحلال، دون زيغ أو انحراف.

تاسعاً: ونحب الحياة والنجاح والمال، دون ظلم أو إضرار بالآخرين، ومن غير معصية أو أنانية أو حقد.

عاشراً: ونحب القيم العليا إرضاءً لله، وتحقيقاً للسعادة للناس أجمعين.

حادي عشر: ونحب العلم وأهله والسعي في سبيله، تقرباً إلى الله، وارتفاعاً بمستوانا، وخدمة لمجتمعنا، وتحقيقاً لإنسانيتنا ولرسالتنا على هذه الأرض.

ثاني عشر: ونؤمن بالحب الصافي المطهر، لأنه يسعد نفوسنا، ويحقق لها التوازن والسعادة والإطمئنان، ويشفي الكثير من جراحها وعللها.

ذلك هو الحب بمعناه الإيجابي الواسع الشامل، فهو بمثابة الروضة الأنف التي يستنشق الطفل عبيرها الفواح في رضى وسعادة، ويقطف من ثمارها، وينعم في ظلها الظليل، واستقرار هذه المعاني المثالية في قلب الطفل يحميه لحدٍ كبير من مشاعر الأنانية والأطماع الذاتية المرضية أو المتطرفة لأننا ونحن نؤكد قيم الحب الأصيل، علينا أن نحاول استئصال نوازع تلك الأنانية، أو نخفف على الأقل من غلوائها، ونساهم في تحجيمها، وجعلها في أضيق نطاق ممكن، وخاصة أن الطفل في بداية رحلة الحياة يحب الإستئثار بكل شيء، ويحاول الإستحواذ على ما بيد الآخرين، والأنكى من ذلك أنه يعتبر ذلك من حقه المطلق، ويبكي ويصرخ ويحتج عندما يحاول أحد كبح جماحه، دون أن يدري أن تلك الأنانية خطر ما حق بالنسبة له، إذا لم نروضه على التخلص من بعض آثارها تدريجياً...

ولذلك نقول، قد يكون من السهل أن نكتب للكبار.. ولكن الأمر أشد ما يكون صعوبة عندما نكتب للصغار.

١٢ - إثراء الحصيلة اللغوية

الكتاب الذي يقرؤه الطفل رافد هام من روافد اللغة، بالإضافة إلى المعلومات والخبرات والمتعة، هو عالم جديد بالنسبة له، فاللغة كما هو معلوم أداة أو وسيلة تعبير واتصال

وإدراك لكثير من الأشياء، ولهذا نرى الطفل يلتقط الكلمات الجديدة ويرددها، ومن هنا حرص المخالطون له على اختيار الكلمات البسيطة في البداية، بل إنهم قد يخففون بعض الحروف، في الكلمة، أو يستبدلونها بحروف أسهل نطقاً، ويفرح الطفل كلما حفظ كلمة جديدة.

لذلك نرى أن غالبية المربين والنفسيين يعتقدون أنه من الأفضل للطفل، أن نقدم في الكتاب أو القصة المطبوعة مزيداً من الألفاظ الجديدة تفوق مستواه الفعلي، حتى يستطيع أن يثرى حصيلته اللغوية وينميها، بينما يرى القلة من هؤلاء المربين والنفسيين أن نقدم له ما في مستواه، ونحن مع الرأي الأول بالتأكيد، إذ لا بد أن يصعد الطفل سلم الترقي اللغوي درجةً درجة.

واللفظة الجديدة تعني اكتشافاً جديداً للطفل، وتزيل الغموض عن جانب ما من جوانب حياته، وتجعله أقدر على الفهم وعلى التعبير، وليست اللفظة وحدها هي التي نريد، وإنما هناك أساليب الصياغة، وصحة النطق، ومعرفة قواعد النحو بطريقة عفوية في البداية، فيتعود على ذلك دون ذكر للقواعد.

وفي بعض البلدان الأجنبية استطاع الذين يكتبون للطفل أن يضعوا قاموساً متطوراً متنامياً للأطفال التي تناسب مراحل

العمر المختلفة، وسجلوا ذلك في مؤلفات خاصة كي يستعين بها المؤلفون عند وضع قصة أو كتاب للطفل، فالطفل في البداية يريد ألفاظاً تحمل دلالات محسوسة يراها أو يسمعها أو يلمسها، ويصعب عليه فهم الألفاظ ذات الدلالات التجريدية أو المعنوية، ولكي نضرب لذلك مثلاً نقول أن الطفل يستطيع إدراك معنى شجرة ـ كلب ـ حصان ـ سيارة ـ ماء، لكنه يجد صعوبة في فهم دلالات ألفاظ أخرى مثل التضحية ـ البراءة ـ الإيمان ـ الأخلاق.. الخ، لانه لا يستطيع تمثلها أو تجسيدها، وإذا لم يدرك الذين يكتبون للأطفال هذه الحقيقة فسوف يقعون في ممارسات عقيمة، تجعل الطفل ينصرف عن كتاباتهم، لأنها بالنسبة له غامضة وغير مفهومة، ولا يمكن تصورها ملموسة أو محسوسة، وفي مكتبات الأطفال العربية الكثير من تلك القصص التي لم تراع هذه القاعدة، نضرب لذلك مثلاً قصة قارون التي أوردها الكاتب بطريقة خاصة. إذ ابتدأ بكتابة الآية الكريمة ﴿إن قارون كان من قوم موسى...﴾ إلى آخر الآية، ثم شرح الآية، وقدم أيضاً بعض الرسوم التي تظهر قارون وجشعه وأمواله، وكأنما القصة قد تحولت إلى مجرد تفسير، وأوردت الكثير من الألفاظ ذات الدلالات المعنوية أو التجريدية، وهناك أيضاً قصة عن أبي ذر الغفاري، خلاصتها نص الحديث الذي ورد عن رسول الله ﷺ بخصوص أبي ذر، ثم شرح لذلك الحديث، ويصعب على

الناقد اعتبار هذين النموذجين من الكتابة قصتين للأطفال، على أي مستوى من مستويات الطفولة.

إن النوايا الحسنة وحدها لا تكفي عند الكتابة للطفل، إذ لا بد من توافر المعلومات المتعلقة بنفسية الطفل وإمكاناته والقاموس اللفظي الذي يناسبه، والحرص على العبارات القصيرة السلسلة العبارات المترابطة بأدوات الوصل أو الطويلة نوعاً، وتجنب الألفاظ التي تحتاج إلى شرح أو التي تصعب قراءتها أو شرحها، وخاصة في بداية معرفة الطفل للقراءة والكتابة؛ بحيث يسهل عليه الإستطراد في القراءة دون عوائق أو تلكؤ، وقد حرصت بعض الدول على إعداد القاموس اللفظي المناسب لكل مرحلة من مرحلة الطفولة، لكن الأمر لم يحظ بالإهتمام الكافي في الوطن العربي والإسلامي، اللهم إلا في بعض المحاولات التي قدمها المرحوم كامل كيلاني في القصة، ومحمد الهواري في الشعر، وفي بعض المجلات كمجلة «سندباد» و«سمير» و«إفتح يا سمسم» وغيرها. وكانت الريادة ـ بالنسبة للمجلات ـ مجلة «روضة الأطفال» التي أنشأها المرحوم رفاعة رافع الطهطاوي في القرن التاسع عشر بعد عودته من فرنسا، وإدراكه للإهتمام الزائد هناك بأدب الأطفال...

إن ازدياد حصيلة الطفل من الثروة اللغوية، يتناسب تناسباً طردياً مع تحصيله الثقافي والعلمي ومع خبرته، وإنماء

الثروة اللغوية أو اللفظية يعني ـ كما قلنا ـ ارتقاء مستوى الطفل ثقافياً وعلمياً، وتطوره في مجال التذوق الجمالي، واتساع دائرة استمتاعه وجدانياً وعقلياً.

لكن النزعة التجارية التي أتلفت ـ أو أمرضت ـ خيال الطفل في أوروبا، هي نفسها التي دفعت الناشرين والمؤلفين إلى إخراج مؤلفات قاصرة وعشوائية للأطفال، وذلك يعرقل المسيرة الهادفة لأدب الأطفال وتنشئتهم ويبقى أننا في حاجة ملحة، إلى وضع قاموس ـ بل قواميس ـ للألفاظ التي تنتقي عند الكتابة للطفل في مراحل السن المختلفة، وأن يتفرغ لمثل هذا العمل الحيوي مجموعة من التربويين والنفسيين والمتخصصين في أدب الطفل، بحيث تبرز تلك القواميس إلى الوجود بصورة سليمة، وتوزع على أوسع نطاق، كيما تساعد المؤلفين في مجالات كتب الأطفال، وتوفر عليهم المشقة الفردية الزائدة، والجهد المضني المضاعف، وخاصة أن معظم هؤلاء المؤلفين قد لا تتيسر لهم الإمكانات الخاصة لتحديد قاموس لفظي مناسب.

إن مشكلة ثقافة الطفل، في معظم أنحاء العالم الإسلامي تفتقد إلى التكامل والتنسيق والتآزر، ففي كل بلد جهات عدة تعنى بالطفل، سواء في وسائل الإعلام، أو وزارات التربية والتعليم أو المعارف، وفي الصحة والمكتبات، وفي إدارات الترويح والترفيه عن الطفل، وكل جهة تجتهد بأسلوبها في

محيطها الخاص، لكن الوضع الأمثل أن تتكاتف هذه الجهات كلها، وتضع تصوراً مشتركاً، ينحو بثقافة الطفل المنحى السليم.

وثقافة الطفل، لايمكن التخطيط لها، والنهوض بها بمنأى عن ثقافة الأم، وما يلزمها من توعية شاملة، تجعلها قادرة على فهم نفسية الطفل ومتطلباته الروحية والبدنية، ثم الطريقة المُثلى لإشباع تلك الرغبات، ومساعدة الطفل في الاستفادة من الإمكانات المطروحة.

ومناهج الطفل في رياض الأطفال، تتخبط هي الأخرى بين الإجتهادات الشخصية، والبرامج المستعارة من الشرق والغرب. وقد تنحرف إلى تصورات مستوردة تتنافى مع طبيعة عقيدتنا وبيئتنا ومسئولياتنا التاريخية والسياسية والتنموية المعاصرة.

وهكذا نرى أن احتياجنا إلى قاموس لغوي للأطفال، لا يقل عن احتياجنا إلى منهج تعليمي تربوي، يلبى إحتياجات أطفالنا الفطرية، ولا يتصادم مع قيمنا الدينية، وتقاليدنا وأعرافنا الإسلامية الأصلية، ومثل هذا المنهج لا يمكن ترجمته أو نقله من تجربة معاصرة في غرب الكرة الأرضية أو شرقها، وإلا انطمست «معالم الشخصية» الإسلامية التي نحرص على تشكيلها والحفاظ عليها، وذابت ضمن المجهات الفكرية الغازية التي لا ترحم.

١٣ ـ تنمية الإحساس بالجمال

إن الله جميل يحب الجمال.

وصور الجمال في الكـون والحيـاة، دليـل على قـدرة الله وعظمته وحكمته، والقيم العليا في مبادىء السماء، ترمز إلى نواحٍ جمالية مثلى، لأنها ينبوع السعادة الحقيقية للبشر في كل زمان ومكان، فالخير والفضيلة، والحب والصـدق، والعـدل والرحمة، والتآخي والبر، والطهر والعفاف، وغير ذلك من الأمور الإيجابية البناءة، التي تملأ القلب بالرضى والسرور، هي في مجموعها جماع السعادة الدنيوية والأخروية، هي تعبير عن الجمال المعنوي الذي لا حدود له..

واتساق الكائنات الحية والجامدة، وامتداد السماء بصفائها وسحبها وأمطارها، وتدفق الأنهار والبحار ومـا تحويـه مـن نعم، وتنوع المزروعات والحيوانات والطيور، ثم السنن الكونية الدقيقة المنظمة التي لا تكون بدونها أية حياة، وتعاقب الليل والنهار، واختلاف الألسنـة والألـوان والسمات والأفـرجـة والعقول.. هذا.. وذاك.. وغيرهما تنبض بما لا يمكن وصفه أو التعبير عنه من الجمال المعجز..

لكن ـ لحكمة يعلمها الله ـ هناك من لهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها،، وقلوب لا يفقهون بها، إنهم كالأنعام بل هم أضّل، وقد دعت الآيات القرآنية إلى تأمل

هذا الكون، واكتشاف روعة التنظيم والتنسيق والجمال فيه، حتى يزداد الإنسان إيماناً ويقيناً، ويسعد بتلك الثروة الهائلة التي تغمر الإنسان والكون في كل موقع ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

وتذوق الجمال واليقين من أعظم نعم الله، وقد رمز إليها أحد الصالحين بقوله « إن بين جنبي من اللذة، مالو علمها الملوك لقاتلوني عليها بالسيوف».

وتمثل الخطيئة والشر والفساد والظلم والاستغلال والغفلة والبعد عن مبادىء السماء، تمثل صورة بشعة للقبح الذي يضاد الجمال...

والأدب ـ كفن جميل ـ إذا ما سار على النهج السليم، وروعيت فيه القواعد الجمالية شكلاً ومضموناً، أوحى إلى القارىء بصور للجمال متنوعة مؤثرة، فالقصة بما فيها من أحداث وشخصيات وتنسيق وقيم وتشويق، تخلب لب الطفل، في كل زمان ومكان، وتجعله يشعر بالمتعة والرضى والإئتناس، وتمده بالمعرفة والخبرة، فيستشعر تلك « اللذة » الروحية التي تفوق في روعتها ماديات الحياة ومغرياتها...

إن تنمية التذوق الجمالي لدى الطفل، له وثيق الصلة بسلوكه المستقبلي، وحكمه على الأمور، واتخاذه للمواقف المؤثرة في الحياة، سوف يشغف بكل ما هو جميل

وسوف يأنف من كل قبيح أو بشع..

عندئذ يجد في نفسه الرغبة لفعل الخير، والبعد عن الشر، وسوف تتكون في ضميره وعقله جذور راسخة للقيم الفاضلة، لأنه حريص ـ بتكوينه ـ على الإستمتاع بما فيها من جمال وخير وحسن عاقبة، وستكون وسيلة لإرضاء ربه، واستقامة أمره، وخدمة مجتمعه، ولسوف ينظر إلى الوجود من حوله نظرة تعمق وفهم وتذوق وتأمل، ويبهر بما لله من قدرة وعظمة، وتترعرع في داخله أزاهير الحب والبهجة والنقاء...

إن الطفل ينزعج أيما انزعاج وهو يستمع إلى قصص البشاعة والقسوة أو يقرؤها، وقد يملؤه الخوف والذعر، فيلجأ إلى من حوله ليحتمي بهم، وتفزعه مشاهد الدماء والقتل والظلم الفادح، وتطارده الكوابيس في نومه، وتتلون نظرته إلى الحياة بلون قاتم مخيف محزن، ولهذا فإن الذين يكتبون للأطفال، يجب ألا يغرقوا في مثل تلك المشاهد والأحداث المرعبة، بحجة أن الحياة فيها الخير والشر، وفيها القبح والجمال، والظلم والعدل، إن الإنحياز إلى الجوانب الخيرة المشرقة في الحياة أمر حيوي بالنسبة لأدب الأطفال، ولا بأس من الإشارة بطريقة عابرة غير تفصيلية لما قد يعتمل في أحداث الحياة من انحرافات وخطأ حتى لا يخدع الطفل، ويكتشف في المستقبل أننا خدعناه، هذا هو الأسلوب الأمثل في تصوير الحياة والناس للطفل، كما يمكن للكاتب أن يلمح

إلى أن الشر عاقبته وخيمة، وأن الخير يفضي إلى السعادة والفلاح ورضى الله والناس.

والطفل أقرب إلى تذوق الجمال من الكبار، فقد يرى الجمال في قطعة من الحديد الصدىء، أو دمية صغيرة، أو زجاجة فارغة. فيقتني هذه أو تلك ويحرص عليها، ثم إن نضوج الكبار وخبراتهم وحاستهم النقدية، تجعلهم أقل إستمتاعاً بما يقرأون أو يسمعون من قصص، لكن الطفل يستغرق في تصوراته وأوهامه وهو يقرأ أو يسمع وينتش أيما نشوة، ويضع لنفسه عالماً فريداً مشوقاً، وينهمك فيه، ويكاد ينسى كل ما حوله، وكاتب الأطفال ـ عندما يدرك ذلك ـ يستطيع أن يفهم أية فرصة نادرة تلك، وأية مسئولية كبرى يحملها، وهو ينقش على تلك الصفحة البيضاء ما يريد من قيم وأفكار ومشاعر.

مرة أخرى نقول إن من أهم وظائف أدب الأطفال، تنمية الإحساس بالجمال، ذلك الجمال الروحي الذي لا حدود له، بل إن الجمال الحسي لدى تذوق الطفل له يتحول إلى جمال معنوي، وما البصر إلا عامل مساعد في هذه العملية التحويلية الغريبة، يثريها عوامل عدة أخرى منها مدى درجة الإستعداد، والخبرات المختزنة، والحالة النفسية، وقوة التخيل والشفافية.

١٤ - الحفاظ على حالة التوتر الصحية وتوجيهها

على الرغم من حالة « التوتر » الفطرية الكامنة في الطفل، إلا أننا في حاجة إلى رعاية تلك الحالة، مخافة الزيغ والإنحراف، أو النكوص والتضاؤل، أو الإفراط، والتوتر الذي نعنيه هنا هو لون من التوقد أو الحماس، تحتويه النفس، ويدفعها إلى الرغبة في العمل والنمو والإبداع، أو بتعبير آخر الرغبة في الطموح، وتحقيق الذات، وأن يحلم الإنسان الطفل بصور الكمال الأمثل، وإذا كنا من قبل قد تحدثنا عن « التوازن النفسي » لدى الطفل، فإننا هنا نحاول ترجمة هذا التوازن إلى فعل إيجابي، وعاطفة مشبوبة نحو الخير والفضيلة والنمو والإنتاج.

والإيمان فكر وعاطفة، وبالتالي فإن العبادات والجهاد، والعمل على التمكين للدعوة، والمشاركة في خدمة المجتمع، وتبني القيم العالية، والتصدي للشر والرذيلة، وغير ذلك من الأمور الأساسية في حياة الفرد، تحتاج دائماً إلى عنصري الفكر والعاطفة، والتأثير متبادل بين العنصرين، ولا يغني أحدهما عن الآخر، بل يرى الكثيرون أن الفطرة أقرب إلى العاطفة منها إلى العقل، وأن كانا متلازمين بنسبٍ متفاوتة.

والإسلام في شموله، حرَّض على تنقية العواطف من

الأدران، وشفائها من الأسقام، وتوجيهها الوجهة الإيجابية البناءة، ويلعب الفن الجميل دوراً أساسياً في إنضاج العاطفة وحراستها والحفاظ على اشتعالها وتوهجها، ومن هنا كان حرصنا على أن يعي الذين يكتبون للأطفال هذه الأمور الهامة في تكوين الطفل وتربيته نفسياً وفكرياً وعاطفياً، لا بقصد إيجاد التوازن فحسب، ولكن لشحن الطاقات، وتحريك الأعضاء، وتشكيل السلوك.

ولقد تناول مفكرو الإسلام هذه الناحية بطرائق عدة، ويكادون يجمعون على أهمية القدوة والعبادة والرياضة النفسية، وعدم الإمتلاء الجسدي، أو الشبع المادي، والحرص الشديد على الإلتزام بالقيم والمبادىء الإسلامية، والتقرب بالنوافل، والإستمتاع بالقناعة والإيثار والتضحية، وجعل الغاية رضى الله، والتسابق الدائب في ذلك المجال «وفي ذلك فليتنافس المتنافسُون»، والإيقان التام بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وبأننا خير أمة أخرجت للناس، وذلك ليس من باب التعالي الأجوف، أو العنصرية المقيتة ـ حاشا لله ـ ولكن استناداً لما في الإسلام من مبادىء إلهية، تسمو فوق تشريعات الأرض، وتصورات الفلاسفة، وفراعم محرفي الكتب السماوية، فالطفل المسلم يجب أن يعتز ويفخر بانتمائه لهذا الدين العظيم، وهذه الأمة الفاضلة، التي تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتتحرك تحت راية التوحيد، فهي

بذاك وغيره خير أمة . . .

ويجب ألا نغضب أو نثور ونحن نرى أطفالنا يتفجرون نشاطاً وحماسة ، فهذه حالة صحية ، وإنما المهم أن توجه التوجيه السليم ، فلا تكبت بالعنف والقهر والعقاب ، وإنما تستغل في رواية قصص المغامرات والبطولات الهادفة ، وتشجيعه على ممارسة أنواع معينة من الألعاب الرياضية ، وشغل وقته بأنشطة علمية وهوايات حرفية ، وتشجيعه على الوفاء بالشعائر الدينية المختلفة طبقاً لمقدرته وسنه ، وتنمية حب الكشف والفضول العلمي والبحث ، وعندما يكبر الطفل ، سوف يجد لديه الرغبة في ارتياد الآفاق ، والشغف بالرحلات ، ويحاول أن يكون طياراً أو مهندساً أو عالماً أو طبيباً ، أو داعية إسلامياً إلى غير ذلك من صور التكيف الإيجابي للشخصية المتسقة . .

وعندما ننظر في تراثنا والتراث العالمي ، نجد المفكرين الكبار قد تعرضوا لهذه القضية ، فسماها بعضهم « القوة الروحية » ، أو « التوتر » أو « العشق المقدس » او « الشعلة المقدسة » ، أو « تربية الذات » ، إلى غير ذلك من المسميات ، لكن الذي يعنينا في هذا المجال ، هو انعكاس ذلك التصور على نفس الطفل ووجدانه وسلوكه ، بالمقاييس الإسلامية الصحيحة ، وبأبسط العبارات نقول إننا نريد من الطفل أن يكون نشطاً ، توّاقاً للعمل الجاد ، والعلم النافع ، والسلوك

المستقيم، وحب التضحية والإيثار، والإعتزاز بدينه وقيمه، ولا شك أن الحفاظ على هذه المشاعر أو العواطف قوية متقدة، فعالة متحركة، مسيطرة وواضحة، هو ما نطلق عليه « حالة التوتر » Tension وهو مصطلح نفسي، تترجه العبارات الجامعة التي ذكرناها آنفاً.

وأول الألوان الأدبية التي يمكن توظيفها في هذا المجال هي القصة التي تقدم للطفل بما فيها من حبكة وموضوع وبيئة زمانية ومكانية وتشخيص وأسلوب ووحدة فنية، وهي العناصر المتفق عليها لفن قصة الأطفال، وكل عنصر من عناصر القصة له دور هام في نجاح الهدف من قراءة القصة أو سماعها، ويمكننا أن نلاحظ ذلك على الطفل بعد أن يشهد تمثيلية في التلفاز أو مسرحية، أو يقرأ قصة، فنراه يندفع قائلاً أريد أن أكون مثل هذا البطل، أو يحاول الطفل تقليد بطله المحبوب في حركاته وأحاديثه، بل يسعى لأن يلبس ملابساً مثل ملابسه، وقد يجمع الطفل أصدقاءه، ويحاول تقديم ما سمعه أو شاهده بأسلوب التمثيلية المبسطة التي يقوم هو فيها بالإخراج وتلقين أصدقائه ما بقي في ذهنه من عبارات، وما أكثر الأطفال الذين يقلدون الإعلانات التجارية وما فيها من أغانٍ وحركات.. بل ورقصات ويؤدون ذلك بأسلوب ماهرٍ، يبلغ درجة كبيرة من الإتقان، حتى كادت مثل هذه الإعلانات أن تضر بالطفل، أو على حد تعبير « بيير بلفيه »

تصيب خياله بالمرض.

وكاتب قصص الأطفال الأمين يستطيع أن يحمي حالة التوتر تلك من التميع والإحباط والإنحراف.

١٥ - توضيح مكانة المرأة المسلمة

من الأمور البديهية أن أدب الأطفال يجب أن يراعي إحتياجات الولد والبنت، ويدرك الفرق بين الأنثى والذكر، مع التسليم بوجود الإهتمامات المشتركة التي تجمعهما معاً، هذا التصور الإجمالي تندرج تحته عناصر عدة كثيرة إذا ما حاولنا التفصيل، فالذكر له رسالته في الحياة، واختلافاته الفسيولوجية والنفسية والعملية، وكذلك الأنثى لا يمكن أن تكون صورة طبق الأصل من الذكر، وهذا الإختلاف لا يغض من شأن الأنثى أو يحقرها أو ينقص من قدرها، إذ أن لكل من الرجل والمرأة رسالة عظيمة، وكل منهما يكمل الآخر، والرباط الذي يربط بينهما هو الحب والتعاون، والرحمة والسكن، وبناء الأسرة السعيدة، وإعداد الأجيال الجديدة للمستقبل، ولهذا نرى أن العقيدة تستنكف العلاقات الثنائية الطائشة، والملذات الآثمة العابرة، والخروج الخاطىء عن دائرة التخصيص والإلتزام، كما راعى الإسلام قداسة صلة الرحم، وأهمية تقويتها وتقويمها، كأصل من أصول السعادة الأسرية،

وكأساس متين من أسس البنية الإجتماعية، دونما تعصب أو إهدار لأخوة العقيدة التي تسمو فوق كل رباط من البشر أيا كانت ألوانهم أو أجناسهم.

ونحن ندرك تلك الفوارق الطبيعية عندما نراقب الأطفال وهم يلعبون ويتحدثون، فنرى البنت تناجي «عروستها» وتتشبه بالأم في تعاملها مع هذه العروسة، فتحاول مناغاتها وملاطفتها. كما تحاول إطعامها وتنويمها في رقة، بينما نرى الطفل شغوفاً باللعب بدمية الحصان، أو استخدام الفؤوس وشق القنوات الصغيرة وملئها بالماء، ويقلد ما يفعله أبوه في عمله اليومي طبقاً لما يراه في بيئته، وكلما تقدم العمر بالأطفال، بدت الفروق أوضح في مجال اختيار اللعب، وفي مجالات السلوك والقراءة والهوايات والطموحات والآمال، فالولد يحلم بأن يكون بطلاً في الحرب أو طياراً أو ضابطاً أو لاعباً للكرة، والبنت تتشوق لأن تكون زوجة وأماً، أو مدرسة مثل مدرستها، أو قادرة على الحياكة أو التمريض أو التمثيل، وغير ذلك من الأمور التي تشاهدها على الطبيعة في بيئتها أو في وسائل الإعلام، وعلى صفحات الكتب..

وفي تاريخنا الإسلامي العظيم صور نابضة بالقوة والتفوق لنساء مسلمات، تمثلن القيم الحضارية الإسلامية، وضربن أروع المثل في العمل والصبر والتضحية والقدرة العلمية والأدبية، وفي تاريخنا أيضاً أسمى المبادىء التي حررت المرأة من الخوف

والإستعباد والقهر، وأعطتها كافة حقوقها المادية والمعنوية، بل جعلها الرسول أسبق من الأب في أحقيتها ببر أبنائها، وهي صورة من التكريم تتضح عظمتها عندما نقارن وضعها بوضع مثيلاتها في الحضارات السابقة أو المعاصرة مع الإسلام.. المرأة المسلمة إذن ليست مجرد « معمل للتفريخ » أو وسيلة من وسائل الإمتاع الرخيص وقضاء الشهوة، وليست مجرد مخلوق يؤمر فيطيع، ويكلف بأثقل الأعباء وأشقها، أو يعامل معاملة قاسية بذيئة.

والقصص التي تتناول الأنثى وتجعل منها غادرة أو خائنة أو متمردة أو قاسية، لا تقدم الصورة الصادقة لواقع الإسلام وحياة المجتمع المسلم، مع تسليمنا بأن المجتمع فيه الشرير والخيِّر، وفيه الصالح والطالح، من النسوة أو الرجال، لكن الذي نريد أن « نوحي » به لأطفال في هذا المجال هو:

أولاً: المرأة - كأي إنسان - لها حقوق وعليها واجبات.

ثانياً: المرأة نبع الحنان الذي لا ينضب، ومصدر الحب الذي لا يجف، فهي التي حملت إبنها جنيناً ورضيعاً، ورعته صبياً، وأغدقت عليه كل ما في وسعها من بر، إذ تجوع ليشبع، وتكدح ليستريح، وتضحي بكل ما تملك - حتى بحياتها - من أجل سعادته والحفاظ عليه.

ثالثاً: والأم الصالحة هي القدوة، كزوجة أو إبنة، أو أخت أو أم.. الأم مدرسة.

رابعاً: طاعة الأم من طاعة الله، ومراعاتها عند الكبر واجب ديني وإنساني.

خامساً: المرأة أحد الأعمدة الهامة لصرح الأسرة والمجتمع.

سادساً: المرأة ـ في إطار التشريع الإسلامي ـ ملتزمة بالزي المحتشم، والسلوك النظيف، والعلاقات الخاصة والعامة التي جاء بها الإسلام.

سابعاً: مقياس التحضر للمرأة، لا يؤخذ من الحضارات الوافدة، والغزو الفكري الغربي أو الشرقي، وإنما يؤخذ ذلك المقياس من قيم الإسلام ومبادئه.

ثامناً: القصص التي تبالغ في تعظيم المرأة، وتجعل الفوز بها هو غاية الغايات، واعظم الأمنيات قصص شائه لا يخدم الحقيقة، وما أكثر القصص التي تزخر بالفرسان والأبطال، وبالملوك والأمراء، وهم يتبارزون ويتحاربون من أجل أن يفوز أحدهم بقلب امرأة، ويرتكب في سبيل ذلك الحماقات والمظالم، ويدوس القيم والمبادىء، مثل هذا اللهاث المحموم المريض، الذي ينظر إلى المرأة كهدف وكغنيمة وكلذة كبرى، ما هو إلا ضرب من

الوثنيات الغربية التي أفـرزتها عقـول قـرون الظلام والإنحراف

تاسعاً: كذلك القصص التي تحقر من شأن المرأة، وتجعل منها حيواناً أو أقرب إلى الحيوان، إنما تقدم نموذجاً شائنها أيضاً للمرأة.

★ ★ ★

إن التراث الشعبي في القصص (كألف ليلة وليلة) يكتظ بالكثير من النماذج الشائهة للمرأة، مع وجود صور أخرى تختلف عن ذلك في هذه القصص، مما يجعله دائماً في حاجة ماسة إلى التنقية من الشوائب، وإعادة التقديم بصورة افضل، وهذا ما فعلته بريطانياً بالنسبة للكثير من القصص العالمي، إذ حاولت أبعاد الأحداث والممارسات التي تضر بنفسية الطفل ووجدانه وسلوكه، مع محافظتها على الأسماء المشهورة وهياكل البناء الفني، والأسلوب المؤثر.. كتاب أدب الطفل مطالبون بإعطاء الصورة الفاضلـة ـ للمـرأة ولعلاقـاتها وإلتـزامـاتها المتشابكة، وهذا لا يعني بالطبع ألا نقدم بعض ألوان الشر والإنحرافات، ولكن بأسلوب هادف مخفف لا يورث الطفل التعقيد والخوف والحيرة..

بين النظرية والتطبيق

نتناول هنا عدداً قليلاً من النماذج من أدب الأطفال، ونحاول تحليلها بإيجاز على ضوء التنظير السابق.

- ١ -

صديقي الحقيقي

كاتب هذه القصة القصيرة للأطفال، هو المؤلف الإذاعي، والباحث وأحد كتاب الأطفال المعاصرين الأستاذ عبد التواب يوسف، وقبل أن نتعرض لقصته بالقراءة والتحليل، علينا أن نستمع لبعض آرائه ـ كخبير لأدب الأطفال ـ حول ما يكتب لهم.

يقول عبد التواب يوسف: « إن خيال الطفل دنيا واسعة بلا حدود، تعيش فيها صور وشخصيات وأحداث ومرئيات، وإذا نحن لم نخلق له هذه الدنيا، فإنه يبتكرها ويوجدها.. إنها دنيا يستبقيها الطفل مما يسمعه من قصص أو حكايات، ويعيد فيها تنظيم العالم حسب رؤيته، وكما يحلو له أن يصوره..

« وأطفال اليوم قد ضاقوا بسذاجة الكتب التي تسمى كتب الأطفال، وضاقوا ببساط الريح وسندريللا وغيرها، ورفضها كثيرون لأنها بالغة السذاجة، ولا تجدو خيالهم، وفي الوقت الذي يستطيع هذا الخيال أن يغير الكثير من ذوقهم، وبالتالي

يغير من عالمنا ذاته، ولهذا ينادي البعض بألا نخاطب الطفل من أعلى، خاصة في مجال الخيال، لأنه يسبقنا ويتفوق علينا في هذا الميدان بالذات.

« وهناك فارق بين الخيال من جانب، وبين الكذب وعدم الصدق من جانب..... والأطفال يحبون سماع الحكايات التي يعتقدون أنها ممكنة الحدوث، وهم أيضاً لا يرفضون الأحداث الخارقة.. » ويحذر الكاتب من إغراق الطفل في الخيال، الأمر الذي يبدد طاقته الواقعية، ويجعله يحيا دائماً في أحلام اليقظة، ويهرب من مواجهة الواقع، كما أننا ندفعه عن طريق الإغراق في التصورات إلى تحويل الخيال إلى أكاذيب، وقد يكذب الطفل ويكذب، حتى يصدق نفسه حين يتجاوز سن الطفولة المبكرة.. [1]

والآن نقدم قصة « صديقي الحقيقي » بنصها لنفس الكاتب، ثم نضع بعض تصوراتنا حولها.

كان لأحد الملوك ابن ذكي، وكانت أسعد لحظات الملك، تلك التي يجلس فيها مع ابنه، يحكي له عن بطولات جنده وشجاعتهم، وتمضي الساعات والإبن جالس، وقد فتح

---

(١) من دراسة قدمت للدورة التدريبية لبرامج الأطفال بقطر، ونشرت في جريدة الخليج بالإمارات العدد ١٨١٧ في ٢ رجب ١٤٠٤ هـ الموافق ١٩٨٤/٤/٣ م.

أذنيه، وعينيه، ليستوعب كلمات أبيه وقصصه التي تحكي عن البطولة.

وكان سعيد الصغير يضيق كثيراً، إذا قطع عليه أحد هذه الجلسات الممتعة، ولكن أعباء كثيرة كانت على والده، وكان لا بد أن يقابل ضباطه وجنوده ورجاله.

وكان الملك ينصح ابنه ويقول:

ـ «يجب أن يكون لك أصدقاؤك»

وسأله سعيد يوماً:

ـ «كيف اختار صديقي الحقيقي يا أبي؟»

قال أبوه:

ـ «عليك أن تختبر هذا الذي تصادقه، وهناك إختبار طريف، أدع هذا الذي تعتقد أنه يصلح صديقاً إلى طعام الإفطار، هنا في بيتنا، وأجّل تقديم الطعام إليه، وخلال ذلك أسلق ثلاث بيضات، ثم قدمها لضيفك لترى كيف يتصرف»

وبدأ الابن يجرب هذا الإختبار الطريف كان بعض من يدعوهم للإفطار يضيق بالإنتظار، فيهتف صارخاً مطالباً بالطعام.. والبعض الآخر لا يصبر، بل يغادر البيت في غيظ لأنهم لم يحضروا الإفطار، وآخرون تصرفوا بلا ذوق ولا أدب قبل أن يحمل إليهم صاحب البيت البيضات الثلاث..

وكان من بين أصحاب ابـن الملـك «سعيـد» صـديقـه

« عادل » ابن الوزير ، وكان يشعر أنه ولد مخلص طيب ، ورغب أنه يمتحنه ، فدعاه إلى طعام الإفطار ، وعندما جاء الطبق ، وفيه البيضات الثلاث نظر إليها (عادل) في دهشة وقال:

- « هل هذا هو كل إفطارنا ؟؟ إنها لا تكفيني وحدي »

وعندما غادر البيت: وترك الطعام ، لم يأسف عليه سعيد ، لأنه عاب الطعام ، وأثبت أنه غير قنوع ، ولا يستحق أن يكون صاحباً لإبن الملك.. وجاء الدور على ابن كبير التجار.

كان ابن كبير التجار فرحاً بدعوة ابن الملك له ، لكي يتناول طعام الإفطار ، لذلك لم يأكل عشاءه في الليلة السابقة ، وفي الصباح الباكر ذهب إلى سعيد وانتظر ، وطال الإنتظار ، وجاع ابن كبير التجار ، وأخيراً حمل إليه ابن الملك الطبق ، وفيه البيضات الثلاث ، وتركه لحظة قصيرة ليأتي فيها بالخبز ، وعاد ليجده قد أتى على البيضات الثلاث ، إلتهمها في لمح البصر ، ولم يبق منها شيء لصديقه ابن الملك الذي دهش وقاله:

- « هل أكلت كل البيض ؟ »

قال ابن التاجر:

- « كل البيض ؟؟ إنه ثلاث لا أكثر »

قال سعيد:

ـ «ليس هناك غيرها طعام إفطار»

قال ابن التاجر الكبير في دهشة:

ـ «أهذا معقول؟»

ضاق ابن الملك بكل الأولاد من حوله، إنهم لا يستحقون أن يعطيهم كل حبه ووده، لذلك انصرف عنهم إلى البحث عن الصديق في مكان آخر.

وبدأ سعيد ينطلق إلى الحقول والغابات لعله يلتقي بواحد يكون هو صديقه الحقيقي: وتعرف ذات يوم إلى ولد يرتدي ملابس بسيطة، وتبدو عليه علامات الفقر وعلامات الذكاء أيضاً، عرف أنه ابن الحطاب، وعندما سأله سعيد أن يلعب معه ويصادقه رفض وقال:

ـ «لا أظن أننا نصلح أصدقاء، فما أنا إلا ولد مسكين فقير، وأنت ابن الملك»

قال له سعيد:

ـ «لماذا لا نجرب؟»

قال ابن الحطاب:

ـ «لا مانع عندي، بشرط أن تفهم أننا متساويان كأصدقاء أوفياء في كل شيء.

وافق سعيد على شرط ابن الحطاب، وبدأ يلعب معه، خرجا معاً إلى الصيد، وتعلم منه سعيد كيف يستخدم القوس،

وكيف يقاتل الحيوانات المفترسة، وكيف يتسلق أشجار الغابة، وقضى معه وقتاً جميلاً رائعاً، وأحس سعيد أنه مع إنسان ذكي، طيب، وقلبه كبير، وعاد إلى بيته مسروراً

والتقى ابن الملك مع ابن الحطاب في اليوم التالي، وسارع ابن الحطاب يدعوه إلى الإفطار معه في كوخه، قبل أن يدعوه سعيد إلى بيته ليختبره كما اختبر زملاءه. وفي الكوخ تناولا معاً طعام الإفطار البسيط، الذي يتكون من الخبز والملح، وقد اكل سعيد بشهية، وكاد يطلب المزيد، لولا أنه خشي أن يكون ابن الحطاب قد دعاه لهذا الإفطار كاختبار له، وليرى إن كان يصلح صديقاً له أم لا، لذلك اكتفى سعيد بما قدم إليه، وحمد الله، وانطلقا معاً لمغامرة جديدة، يتعلم فيها ابن الملك شيئاً مفيداً لم يعرفه من قبل، واستمتعا بوقت طيب، وافترقا على وعد من ابن الحطاب، بأن يزور صاحبه في قصره في صباح الغد، لكي يتناولا طعام الإفطار

وعلى مائدة الإفطار في ذلك الصباح، كان هناك الطبق وفيه البيضات الثلاث، وامتدت يد ابن الحطاب لواحدة منها قشرها لنفسه، بينما كان ابن الملك يقشر بيضة ويأكلها، وأخذ ابن الحطاب البيضة الثالثة، وقشرها، وانتظر سعيد ليرى ماذا سيصنع ابن الحطاب بها، هل سيأخذها لنفسه أم يهديها إليه؟ ولكنه تصرف بطريقة أخرى بسيطة، أخذ

السكين من على المائدة، وقطع بها البيضة إلى جزأين متساويين، أخذ لنفسه نصفاً، وأعطى الآخر لابن الملك، الذي قام يعانقه ويهتف قائلاً:

- «أنت صديقي الحقيقي».

وكبر الولدان، وكبرت الصداقة بينهما، وبعد سنوات طويلة، تولى سعيد حكم البلاد، وكان أول وزير يختاره» هو صديق طفولته الوفي ابن الحطَّاب.. فكان له خير صديق وخير ناصح أمين..

«انتهت القصة»

لو حاولنا أن نطبق مقاييس النقد الخاص بأدب الأطفال على هذه القصة - آخذين في الإعتبار - الآراء النقدية التي سجلناها لمؤلفها في بداية حديثنا عنه لأمكننا بسهولة أن نصل إلى النتائج التالية:

أولاً: وضوح الفكرة دون تشتت أو غموض

ثانياً: حلاوة السرد السلس الشيق، وقصر الحوار المعبر، وعدم الإكثار منه.

ثالثاً: البداية - أو المقدمة - القصيرة، ثم الدخول في الموضوع الذي يتعلق باختبار الصديق الحقيقي المناسب.

رابعاً: تراكم الأحداث بصور ونماذج وتتابع شيق حتى بلوغ القمة أو العقدة.

خامساً: القصة في مجملها تشبه قصص الحكمة في التراث القديم إن لم تكن مأخوذة فيه بصورة معدلة مهذبة.

سادساً: قدمت القصة في إطار يبدو واقعياً مقنعاً، دون أن تهدر الخيال المناسب، بالجرعات المقبولة.

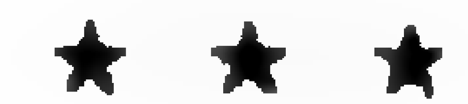
سابعاً: تأكيد المعنى الشعبي التراثي «للخبز والملح» باعتبارهما رمزاً للصداقة والمحبة والإخلاص.. أو كما يسميها البعض «عيش وملح».

ثامناً: الألفاظ سهلة مفهومة، ولا نكاد نجد أي صعوبة في إدراك معنى الألفاظ اللهم إلا كلمة «يستوعب» التي جاءت في بداية القصة، لكن لا بأس أن يخرج الطفل بكلمة جديدة تشرح له إذا سأل عنها.

تاسعاً: إستطاع المؤلف ببراعة، أن يصور الفرق الشاسع بين ابن الوزير وابن التاجر وأضرابهم، وبين ابن الحطاب لأن حياة الأخير كانت مترعة بالخبرات الجيدة، كاستخدام القوس، والتصدي للحيوانات المفترسة، وتسلق الأشجار، وعدم التفريط في كرامته وكبريائه، والظهور بالمظهر العادي البسيط الصادق، دون أن يخجل أو يأنف من ذلك، ولهذا لم يجد ابن

الخطاب بأساً من أن يقدم الخبز والملح للأمير ابن الملك، كما وجد ابن الملك في ابن الخطاب الحكمة والكياسة وحسن التصرف، دون تملق أو رياء، وخاصة عندما اشترط على الأمير في صداقته أن يكونا متساويين، وعندما اقتسم البيضة الثالثة.. نصفاً لكل منهما.

عاشراً: وتأتي النهاية السعيدة المريحة كشيء طبيعي، فيكون ابن الخطاب ـ برغم كونه من عامة الشعب ـ هو الصديق الحقيقي المناسب، ويصبح وزيراً عندما يتقلد سعيد مقاليد الحكم..



والكاتب كما نرى يحبذ الشكل الواقعي للقصة، لأن الطفل ـ كما يعتقد ـ يرفض مخاطبته من علٍ، ويكره الكذب والإدعاء، كما يعرف الفرق بين الخيال والكذب، ولعل من الواقعية التي أغفلها الكاتب أن تسمي بيت الملك «قصراً» فهذا أفضل للسياق والموضوع والبيئة، كما قد يكون مناسباً أنه يسمي سعيد مثلاً «الأمير سعيد» لأنه ابن الملك، ولن يخل ذلك بفكرته أو الشكل الفني الممتاز الذي قدمه.

لكن كيف ننظر لهذه القصة من وجهة النظر الإسلامية؟؟ لقد سبق وقررنا أنه ليس من الضروري دائماً أن تكون

القصة من التاريخ الإسلامي، أو تراثه القصصي الفيَّاض حتى تعتبر قصة إسلامية، لكن المهم أن تحمل القيم والإيحاءات والرموز الإسلامية من خلال الأحداث أو الحوار أو المبادىء التي تدعو لها، ولذا نرى في القصة بعض المعاني الإنسانية النبيلة، والمبادىء الإسلامية الرفيعة، فالإسلام نهى عن صحبة السوء، وأمر بإختيار الصديق الصالح النافع المفيد، واعتبر صديق السوء « كنافخ الكير ». والصديق الصالح « كبائع المسك » كما جاء في الحديث المشهور للنبي ﷺ، ووضع الإسلام للصديق الأمثل مواصفات عدة وردت في الكثير من الآثار الإسلامية، كأن يكون ناصحاً أميناً، ويعين على طاعة الله، ويصدق في قوله، ويبر في عمله، ولا يوقع بالفساد بين الناس، وأن يكون مثلاً يحتذى في الأمانة والوفاء والإلتزام بأوامر الله ونواهيه، وقد كان ابن الحطاب نموذجا طيباً في الصدق والفطنة (والمؤمن كيس فطن) وفي النشاط والعمل، وفي الإنصاف والروية، وفي اكتساب المهارات، دونما عنجهية أو غرور أو تكاسل أو رعونة، وهو بالمقاييس الإسلامية صديق طيب.. لكن يبقى شيء.. كان يستطيع الكاتب أن يشير من طرف خفي إلى صفة أساسية تتعلق بناحية العبادات.. نحن لا نطلب من الكاتب أن يتحول إلى الوعظ المباشر، لكنه كان يكفيه أن يضيف ولو عبارة واحدة تقول مثلاً: « فلنؤد صلاتنا أيها الأمير.. »، وبذلك يمكن أن نقول

بأن شخصية الصديق الحقيقي ـ ابن الخطاب ـ الذي سيصبح وزيراً فيما بعد، نقول أن هذه الشخصية قد اكتملت ملامحها إسلامياً، وأصبحت شاملة لأهم الصفات المثالية.

بقيت نقطة أن لكل «حدث» زمان ومكان، وفي هذه القصة لا نستطيع أن نعرف في أي زمان وقعت هذه الأحداث، ولا في أية دولة أو بقعة أو مدينة، قد يقول قائل: يكفي أنها حدثت في الزمن القديم، وقد يعلق آخر زاعماً أن مثل تلك القصص ذات سمات عامة، ودلالات واضحة تتصل بالحكمة أو المثل، والتركيز في هذا الإطار يكفي، وتجاهل الزمان والمكان المحددين سوف يساعد على عدم صرف ذهن القارىء، إلى أشياء أخرى فرعية، وقد تكون وجهة النظرة هذه أو تلك مقبولة لحد ما، لكن الذي لا شك فيه أن إضافة إسم مدينة أو دولة أمر بسيط، ثم إنه سوف يضيف مادة جديدة تثير خيال الطفل، وخاصة أن الكاتب نفسه في بحثه أكد على أهمية استعمال كل الوسائل الممكنة المتاحة لإثارة خيال الطفل وتحريكه.. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الصفة المكانية ـ ولو بإيجاز ـ للعمل الفني.

ومع ذلك فالقصة في عمومها ترجمان عن أدب حديث مناسب للأطفال، وروعيت فيه النواحي:

ـ الفكرية

- والنفسية والوجدانية
- والخيالية
- والجمالية بصفة عامة..

- ٢ -

قصص الأنبياء

ما أكثر ما كتب في قصص الأنبياء للأطفال في شتى اللغات وفي الأديان السماوية بصفة عامة، لكن:

« مجموعة قصص الأنبياء »

التي أشرف عليها الأستاذ محمد أحمد برانق كبير مفتشي التربية الإسلامية بوزارة التربية والتعليم بمصر (سابقاً، والتي اصدرتها دار المعارف تعتبر من الأعمال الهامة بالنسبة للطفل المسلم، وهي مجموعة ـ كما جاء في برنامجها جديدة، في أسلوب سهل ممتع، وإخراج جميل أنيق، للصغار والكبار، نصف حياة الأنبياء، وجليل أعمالهم، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم، خالية من الشوائب والإسرائيليات، حتى تظل العقيدة سليمة نقية، تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده، والإعتصام بدينه وتعاليمه، والتخلي بالفضائل الحسنة، والتمسك بالأخلاق الكريمة... »

وقد صدر من هذه القصص ـ صالح ـ إبراهيم الخليل ـ يوسف الصديق ـ يوسف العفيف ـ موسى الرضيع ـ موسى والسحرة ـ سليمان وبلقيس ـ أيوب ـ عيسى المسيح ... الخ.

لكن هذه المجموعة بصفة عامة تناسب المرحلة الأخيرة من الطفولة، نظراً لموضوعاتها وما فيها من معنويات يجد الطفل الأصغر صعوبة في تمثلها واستيعابها، ولسمو اسلوبها لحد ما، مما يحتاج معه الطفل إلى كثير من النضوج والإطلاع المسبق وسوف نتناول واحدة من هذه القصص ثم نعلق عليها، إنها قصة «هود»، وهي في ثلاثين صفحة من القطع المتوسط وبها أربع لوحات غير ملونة، والكلمات مرقمة، والحروف من الحجم الفوق المتوسط، وفي كل صفحة ستة عشر سطراً، ونجد أن علامات التعجب والإستفهام والفصلات والنقط وغيرها في موقعها الصحيح من الجمل والعبارات، كما إننا لا نجد فيها أخطاء مطبعية أو نحوية أو لغوية، فهي قد أعدت بعناية فائقة من هذا الجانب.

وتبدأ القصة بعد أن رست سفينة نوح على الجبل، وانحسر الماء، وعاش الناجون حول جبل «الجودى» وتكاثروا، ثم هاجر بعضهم، ومن المهاجرين قبيلة تمتاز بضخامة الأجسام زعيمها اسمه «عاد» وهو الإسم الذي تسمَّت به القبيلة، التي رحلت إلى جبال «الأحقاف» وهي تقع في جنوب بلاد العرب بين اليمن وخليج عمان.

وصعد عاد إلى قمة الجبل ذات يوم فسمع صوتاً هائلاً مزعجاً، حاول أن يفهم سره، وبعد أن سد ثغرة في كتلة صخرية تشبه الإنسان تقريباً صمت الصوت.

وانحرف قوم عاد عن الجادة إذ ظلموا وتجبروا وقطعوا الطريق، ونسوا المعاني الإنسانية الرفيعة، ونسوا التوحيد أيضاً، وعبدوا الأصنام، وتوجهوا بدعائهم وصلواتهم إلى الهيكل الصخري الذي يشبه الإنسان فوق قمة الجبل باعتباره كبير آلهتهم من الأصنام.

وعاش بينهم رجل صالح اسمه «هود» دعاهم إلى الإيمان الصحيح والعمل الصالح، والبعد عن الفتك والغدر والظلم، لكنهم اتهموه بالضعف والخور والضلال، وسخروا منه عندما أبلغهم أنه رسول الله إليهم، وانغمسوا في ملذاتهم والنعيم الرائع الذي تحقق لهم، ولم يؤمن بنبي الله «هود» إلا فئة قليلة، وكان زعيم الكافرين الضالين في تلك الفترة التاريخية رجل إسمه «جهلمة» الذي اتهم «هود» بالجنون والسفاهة، وتحداه بأن يأتي بآية..

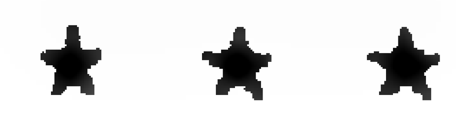
وطال الصراع بين الطرفين، وظل «هود» يدعو ويدعو، حتى بُحَّ صوته، فما ازداد الكافرين إلا عناداً وضلالاً.

وجاءت لحظة العقاب.. لقد ظهرت سحابة سوداء في الأفق، وقال الكافرون إنها المطر والخير العميم، وقال هود بل إنها ريح وأعصار مدمر.. وفيها عذاب مقيم لما أبوا أن يؤمنون بالله، وينصاعوا للحق والعدل.. وقد فهم هود ذلك من جبريل عليه السلام، وذهب هود والمؤمنون ـ طبقاً لأمر

الوحي- إلى جانب آخر من الجبل. وبقي «جهلمة» وقومه في منطقتهم المعهودة ينتظرون المطر...

وحانت لحظة العقاب الرهيب: «كان السواد الذي رأته العمالقة، وظنته سحاباً ممطراً، ريحاً صرصراً، وإعصاراً مدمراً، هب عليهم عنيفاً، فاقتلع الأشجار، وهدم القصور، وردم الشوارع والميادين، وحملت الرياح هؤلاء العمالقة الضخام، وطيرتهم في الجو. وكانوا يسقطون على رؤوسهم، فتُدق أعناقهم، وإذا عمالقة عاد، الجبابرة الشداد، قد غرسوا في الرمال كأنهم أعجاز نخل خاوية..»

أما عاد وصحابته، فقد لجأوا إلى كهف ثمانية أيام، ولما خرجوا سالمين، وجدوا المدينة (مدينة إرم ذات العماد) وقد تحولت إلى أطلال، والمزارع إلى أرض قفرة، ولم ينج إلا تلك البيوت المنحوتة في الجبل تشهد بظلمهم وسوء عاقبتهم، ثم اتجه هود بمن آمن معه إلى «حضرموت» فعاشوا فيها يعبدون الله.



والقصة - كما هو واضح- تعالج القضية الرئيسية في العقيدة ألا وهي قضية التوحيد، والقصة مأخوذة من القرآن الكريم وملتزمة به، ولم تفسح مكاناً للخرافات والأساطير الموضوعية، واستطاع المؤلف أن يبين فساد الفكر، وضلال

الإعتقاد، وغرابة الوهم المسيطر على النفوس، وخاصة في واقعة الصوت الغامض الذي ينبعث من قمة الجبل بسبب ظاهرة طبيعية عادية، حسبها الضالون سحراً وغموضاً ورمزاً لآلهتهم ومشاعر أصنامهم، وبين الكاتب ضخامة الرجال، وسمت القوة والبطش، وعظمة الثراء والرفاهية التي تنعم فيها المبطلون، فلم يغن هذا كله، حين وقع عليهم عقاب الله..

كان التحدي واضحاً بين هود وقومه.. وتصعد التحدي أو الصراع إلى القمة أو «العقدة»، وأحسن المؤلف تصوير الشخصيات بما يتفق وطبيعتها، ورتب الأحداث بصورة محكمة، وبدلاً من ايراد الآيات القرآنية، كان يتحدث بمعناها أو تفسيرها في معظم العبارات، وكان النصر في النهاية للمؤمنين الصالحين.. أي انتصر الخير على الشر..

ولم تغفل القصة جانب الخيال، إن عبق التاريخ يفوح من بين سطورها وأحداثها وأسماء الأمكنة والأبطال، كما أن المؤلف إستطاع توظيف ظاهرة الصوت المنبعث من الجبل عند القمة تصويراً مثيراً يدعو إلى التفكير والتأمل، وإن استطاع أن يضع سبب الظاهرة بأسلوب علمي. لكن المعجزة جاءت كدليل على قدرة الله وعدالته، وتأكيداً قوياً على صدق رسالة «هود» مما زاد من يقين أتباعه المؤمنين به، وكانت عمليات قطع الطريق، والتمادي في القسوة، والإنصياع للغرور، والتشبث بالعقيدة الخاطئة، ووقائع راسخة، يصعب نسيانها

بالنسبة لمن يقرؤها ويعايشها، بل يشعر القارىء بالكراهية والإشمئزاز من هذه الممارسات الطائشة الجائرة في الحياة، مما يجعله يتلهف على سماع النهاية، وصورة العقاب العادل لهذه الفئة الباغية.

هي قصة إذن من القصص الديني التهذيبي، الثابتة بالنصوص القرآنية، والتي تكتسب قداسة واحتراماً لدى القارىء، ويجد فيها المتعة إلى جوار المنفعة، لما لها من تأثير وجداني وعقلي ونفسي.

غير أن بالقصة الكلمات والعبارات التي تحتاج إلى قدر من المساعدة لفهمها، مما يجعلنا نقول أنها تناسب الأطفال في المرحلة الإبتدائية العُليا، أما دون ذلك فتحتاج إلى قدر من التبسيط.

ولقد قدم الأستاذ «عبد الحميد جوده السحَّار» قصصاً مشابهافي نفس الموضوعات التي طرقتها سلسلة «مجموعة قصص الأنبياء» وسماها «القصص الديني ـ الانبياء» وقسمها إلى حلقات، وسوف نتناول واحدة منها للمقارنة إن شاء الله.

- ٣ -

من المقتبس والمترجم

إن المترجم والمقتبس من قصص الأطفال يشكل حيزاً ضخماً في تراثنا المعاصر في أدب الأطفال، بل إن روّاد ذلك الأدب المخلصين قد لجأوا إليه، فنرى ذلك عند أمير الشعراء «أحمد شوقي» حين أخذ بعض قصص «كليلة ودمنة» نقلاً عن الفرنسية، ونرى ذلك أيضاً عند «كامل كيلاني» وغيره، والواقع أن «كامل كيلاني» كان موسوعة فيما قدّم من قصص منوع للأطفال يشمل التاريخ والأسطورة والقصة العلمية والمترجمة والمقتبسة وقصص التراث الشعبي وغيره، وحتى يومنا هذا ما زال المترجم والمقتبس والمعرب يحتل حيزاً كبيراً كما قلنا، لكن المهم في الأمر - كما سبق وأكدنا - مراعاة ما يناسب عقيدتنا وقيمنا عندما ننقل عن الآداب العالمية.

وسوف أتناول قصة قصيرة، هي أقرب إلى المثل والعبرة منها إلى القصة المستوفاة طولاً وعناصر، والقصة كما كتبت تحت عنوان:

حكاية أعجبتني.

«إنتقام فلاح»[1]

---

(١) الأهرام مايو ١٩٨٤ - يعقوب الشاروني.

إعتاد ثعلب أن يسطو على حظيرة الدجاج في بيت أحد الفلاحين، فوضع الفلاح مصيدة، استطاع بها أن يمسك الثعلب.

وكان الفلاح يشعر بالغضب الشديد لكثرة ما قتل الثعلب من الدجاج، فأراد أن ينتقم منه، فربط حزمة من الخرق في ذيل الثعلب. وأشعل فيها النار، ووقف يتأمل الثعلب، وهو يتلوى من ألم الثأر وأصاب الألم الثعلبْ بالجنون، فاندفع يجري ناحية الحقول وقد اشتعل جسمه.

كان القمح قد اصفرَّ لونه، وأصبح ينتظر الحصاد، وسرعان ما اشتعلت فيه النار واحترق، وفقد الفلاح محصوله كله.

وهكذا أدرك الفلاح بعد فوات الأوان أن الإنتقام سلاح ذو حدين.

ـ انتهت القصة ـ

تعليق:

الواقع أن الحكاية ـ برغم قصرها ـ قدمت صورة حية نابضة بالحركة والحياة، ورمزت إلى الجو المشحون خارج شخصية الفلاح وداخلها، فلأول وهلة يدرك القاريء ـ أو السامع ـ فداحة الخسائر التي يسببها الثعلب الماكر، ويلحظ غدره بالدجاج البريء الضعيف.

ولذلك نرى القاص يقول « لكثرة ما قتل » ولم يقل لكثرة ما خطف.. لأن القتل والدم مؤلم ومثير. كما استطاع القاص أن يفصح عن نفسية الفلاح وغضبه، وخاصة عندما ابتكر وسيلة العقاب القاسية، ثم وقوفه يتشفى وينظر إلى الثعلب وهو يتألم من النار الحارقة، إن القاص يريد أن يوحي بأن:

١ ـ الإنتقام غير العقاب.

٢ ـ الإنتقام مع الحقد ضار وخطير.

٣ ـ الحقد يفقد الإنسان التروي والحكمة.

٤ ـ الحقد أعمى، ويوقع الضرر بصاحبه عندما يوقعه على عدوه أي ذو حدين.. ضار ونافع.

والكاتب لا يترك الطفل هكذا، دون أن يضع أمام عينيه الحكمة أو العبرة، التي يمكن أن تؤثر في سلوكه، ويعلمه كيف ينظر إلى بعيد، ويحاول أن يتخيل ما يمكن أن يحدث مستقبلاً بسبب أي تصرف يأتيه في لحظة من اللحظات، والعاقل من يبتعد عن الحقد، ويفكر جيداً فيما يفعل، ويبحث في نتائج ما هو مقدم عليه حتى لا يندم.. نعم حتى لا يندم.

أترى يغيب عنا المعنى الأخلاقي والسلوكي في هذه الحكاية؟؟ ورغم ما في الحدث من ألم ومرارة وعاقبة وخيمة، إلا أن منظر الثعلب وهو يجري والنار مشتعلة فيه، قد يكون فيه جانباً من الفكاهة التي قد يطرب لها الأطفال برغم قسوتها ومرارتها، لكن أليس ذلك الثعلب هو الذي « قتل » الدجاج

البرىء ؟؟ والأطفال يحبون الدجاج، ويتألمون لذبحه ـ مع أنه مشروع ـ وقد يبكون عند ذبح خروف العيد والحيوانات الأليفة، لكن طبيعة الحياة بالتدريج تجعلهم أكثر قناعة بما أباحه الشرع..

والثعلب في نظرهم مجرم قاتل يستحق العقاب.. لكن أي عقاب؟؟ تلك هي القضية..

ولنفس الكاتب حكاية أخرى ـ نفس المصدر ـ تحت عنوان:

«الأفيال والحفرة»

في إحدى الغابات الأفريقية، حفر الصيادون حفرة كبيرة، غطوها بالأغصان وأوراق الشجر، وتركوها إلى أن يسقط فيها، حيوان يأخذونه حياً إلى حدائق الحيوان.

وفي الصباح، إقترب قطيع من الأفيال، كانت الأفيال تبحث عن ماء تشرب منه، وفجأة إرتفع صوت أغصان تتحطم وسقط الفيل الذي كان يسير في المقدمة في حفرة الصيادين.

وتوقفت الأفيال، وقد ملأتها الدهشة والمفاجأة، وعندما فهمت حقيقة ما حدث، رفعت خراطيمها. إلى أعلى، وأطلقت صيحات الغضب..

وفجأة اتجه أحد الفيلة إلى شجرة كبيرة، قطع منها غصناً

ألقى به في الحفرة.. ثم قطع غصناً آخر ألقاه أيضاً في الحفرة.. وبسرعة اشترك قطيع الأفيال كله، في قطع الأغصان وإلقائها في الحفرة.

بدأ قاع الحفرة يرتفع، وقد إمتلأ بالأغصان، وبعد قليل كان في استطاعة الفيل الذي يقود القطيع أن يخرج من الحفرة التي امتلأت بالأغصان، وأن ينطلق ثانية في مقدمة القطيع، وقد ارتفعت خراطيم أفراده في الهواء، وهي تطلق هذه المرة صيحات النصر..

- إنتهت القصة -

تعليق:

هذه لون آخر من ألوان الحكاية، يتعرف الطفل من خلالها على ضرورة البحث عن مخرج عند المآزق، إذ لا يصح أن يستسلم الإنسان لمصيره. ويسلم نفسه لقمة سائغة لأي طامع، والأمل في النجاة لا يموت.. فلنبحث ولنجد في البحث.. فقد نعثر على حل.. ذلك هو الدرس الذي تريد «الحكاية» أن تلقنه للطفل.

فضلاً عن أن الحكاية تعطى معلومات أولية مبسطة عن وجود الغابات والأفيال في أفريقية، وإن للأفيال طريقتها الخاصة في التعبير عن غضبها وفرحها، وذلك برفع خراطيمها إلى أعلى، وإصدار صيحات من نوع مميز.

والأطفال عادة يسعدون بسماع قصص الحيوان ويقلدونها..

القصص الديني عند الإستاذ المرحوم عبد الحميد جودة السحار كثير ومتنوع، فقد كتب ما يقرب من مائة قصة، الواحدة منها في حدود ثلاثين صفحة تقريباً، وتضم هذه القصص:

١ - قصص الأنبياء (بالإشتراك مع سيد قطب) - ١٨ قصة

٢ - قصص السيرة - ٢٤ قصة

٣ - قصص الخلفاء الراشدين ٢٠ قصة

٤ - العرب في أوربا ٢٤ كتاباً.

وقد جاء في مقدمة قصة « موسى والعصا » ما نصه:

« أخذت مكتبة الطفل في السنوات الأخيرة تنمو وتتسع، وكان اعتمادها في جملته على القصص، وكان جل هذا القصص مترجماً أو معرباً ».

وفي القرآن الكريم قصص رائع جميل، فلم لا يأخذ مكانه في مكتبة الطفل، ولم لا تنتفع هذه المكتبة بذلك التراث الجميل؟ ؟

فكرنا في هذا، فأخرجنا هذه السلسلة، ولقد راعينا فيها اعتبارين:

الأول: أن تكون النصوص القرآنية هي المصدر الأول لما نكتب، إذ كنا نعتقد أن للقرآن في هذه الناحية فكرة تهذيبية معينة.

والثاني: أن نحقق السرد الفني للقصص، بما يربي في الطفل الشعور الديني، ويقوي الحاسة الفنية، وينمي الذوق الأدبي..».

هذا ما يتعلق بقصص الأنبياء...

وللأستاذ السَّمار كتب أخرى عن «أهل البيت» و«بلال» و«أبي ذر» وبعض الكتب المترجمة أشهرها كتاب عن حياة الرسول ﷺ، بالإضافة إلى العديد من القصص القصيرة والروايات المعاصرة الأخرى التي شاع ذكرها.

وسوف نختار هنا إحدى قصصه الديني للأطفال، وهي قصة «موسى والعصا» لنقدمها بإيجاز، ثم نتناولها بقليل من النقد والتعليق.

ـ انتهت القصة ـ

تروى القصة بأسلوب سهل، وعبارات واضحة،تكاثر بني إسرائيل في مصر بعد أن وفدوا إليها أيام نبي الله يوسف، وكيف امتلكوا الضياع والمزارع الواسعة، وأصبحوا قوة بشرية واقتصادية يخشى بأسها، وحاول فرعون أن يفكر في حل، فقرر قتل كل مولود ذكر، حتى يقل عددهم، وفي هذه

الفترة العصيبة ولد موسى، فأوحى الله إلى أمه أن تصنع له صندوقاً وتلقيه في نهر النيل، ففعلت وأمرت ابنتها أن تراقب الصندوق، الذي استقر أمام قصر فرعون، وعندما فتح الصندوق وجدوا فيه طفلاً جميلاً، وكانت إمرأة فرعون عقيما لا تلد ـ وهي إمرأة طيبة مؤمنة صالحة ـ فطلبت من زوجها فرعون أن تتبناه ليعوضها عن عدم الإنجاب، ففعل..

وتمضي القصة المعروفة في سهولة ويسر لتروي عن قوة موسى وضربه لمصري يعتدي على إسرائيلي، ويموت المصري، ويحدث شجار آخر مع نفس الإسرائيلي ويهم موسى بحمايته، لكن المصري يقول: «أتقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس»، فيعرف موسى أن الأمر شاع.. فيهرب إلى الصحراء الشرقية حيث أرض مدين، ويلتقي بابنتي نبي الله «شعيب» ويسقي لهما الغنم، ثم يتزوج إحداهما مقابل خدمته لنبي الله عشر سنوات... وبعدها يرحل موسى مرة أخرى مع زوجه ليستقل بحياته.. وعند جبل الطور يسمع النداء الإلهي الذي يكلفه بدعوة فرعون إلى الإيمان بالله.. كما يتلقى معجزة العصا التي تتحول إلى حية.. ومعجزة اليد التي تخرج بيضاء تشع في الظلام.. ويستجيب الله لما طلبه موسى بأن يكون أخوه هارون معه في دعوة فرعون للإيمان، وإخراج بني إسرائيل، ويذهب موسى وأخاه إلى فرعون، ويظهر معجزته، فيتهمه فرعون بالسحر، ويدعو فرعون سحرته ليوم مشهود لتحدي

موسى ومعجزته... ويبدأ سحرة فرعون، وتتحول عصيهم إلى حيات وثعابين، ثم يلقي موسى بعصاه فتصبح حية ضخمة تبتلع الثعابين والحيات الأخرى، فيتأكد لسحرة فرعون، أن موسى ليس بساحر، وأنه نبي «إن الله أرسله، وإن الله هو الذي يساعده»(1) وشتان بين المعجزة والسحر.. ويؤمن السحرة ويتوعدهم فرعون بالقتل والتعذيب لكن السحرة قالوا «نحن لا نخاف عذابك، فأنت تعذبنا في الدنيا، ولكن الله سيدخلنا الجنة في الآخرة»(2).

ويستمر الصراع بين الخير والشر، بين موسى وفرعون، وتأتي المصائب تباعاً.. الفيضان.. الجراد.. القمل.. الضفادع.. الدم.. وفي كل مرة يعد فرعون بالعفو عن السحرة، والسماح لبني إسرائيل بعد هذه المعجزات التي كانت تخلص فرعون وقومه من المصائب...

وخرج موسى وقومه خفية، ولما علم فرعون تبعهم بجيشه وهم يسيرون صوب البحر الأحمر.. لكن معجزة أخرى أنقذت بني إسرائيل.. إذ ضرب موسى البحر بعصاه فانشق عن طريق يبس سار فيه وقومه، ولما تبعهم فرعون وجنوده أطبق الماء عليهم وأغرقهم، وطفت جثة فرعون على السطح

---

(1) القصة ص ٢٠.

(2) نفس المرجع.

لتكون عبرة.. ومضى بنو إسرائيل ومعهم موسى نحو جبل الطور...

تعليق:

القصة ـ كما هو واضح ـ لم تخرج عن الحقائق التي وردت في القرآن الكريم، وقدمت بأسلوب سلس، لا يصعب فهمه على الطفل، بالرغم من وجود بعض الآيات القرآنية القليلة بنصها، وفي القصة تجسيد واضح لعناد فرعون وجبروته وظلمه.. فهو لم يؤمن إلا وهو يغرق.. وفيها أيضاً تصوير شائق ممتع متحرك لمشاهد السحر والسحرة، وإدراك الفرق بين السحر والمعجزة، إذ أن السحر خداع وخفة يد وأوهام وإيحاءات نفسية وذكاء.. والمعجزة شيء خارق، خارج عن سنن الكون، من صنع الله وحده... ولذلك أبطلت السحر ومفعوله، كما تبين القصة عن صبر الدعاة، وتشبثهم بالإيمان، وصمودهم رغم الظلم والبطش، والإجحاف والإرهاب.. كما تؤكد قيمة أساسية بارزة وهي ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾.

وليس في القصة عقبات لفظية، ولا تشتت أو تفرعات تخرج عن السياق العام، وفيها الحبكة التي تحدثنا عنها والعقدة أو قمة الحديث، ثم النهاية المريحة، التي يبدو فيها انتصار الحق المؤيد من الله، وهزيمة الباطل الذي يدعمه الشياطين

والمكابرون.. أليس الله بأحكم الحاكمين، وأعدل العادلين؟؟

وللأسف فإن هناك بعض النقاد يطلق على مثل هذه القصص « الأساطير » والواقع أن هذا خطأ فادح، إن ما ورد في القرآن بنصه لا يمكن وصفه بالأسطورة، فالأسطورة في رأينا منذ أن ظهرت كمصطلح تعني الخرافة وتعني الأحداث التفسيرية المتعلقة بآلهة الأغـريـق والوثنيـات القـديمة، وتعني البطولات التاريخية الخارقة المخترعة، أو التي صنعتها خيالات الشعوب وأوهامهم، وليس فيها قدر يذكر من الحقيقة، لكن القصص القرآني حقائق.. « إن هذا لهو القصص الحق »، ولذا يسمى الغربيون الرواية « بالرومانس » Romance، وهي تحمل معنى الخيال والإختراع، وهذا ما حدا بالشيخ محمد متولي الشعرواي بأن يؤكد أن القصص القرآني نسيج وحده، وأنه هو القصص الحق، وأن النقاد والأدباء عليهم أن يبحثوا لفنهم الروائي أو القصص عن إسم آخر.

ومن ثم يجب الحذر عنـدمـا نقـرأ الدراسـات الأجنبيـة والعربية عن الأسطورة والخرافة والجنيات والخوارق وغيرها، حتى لا يختلط الأمر، فالتسليم بالتعريفات الأجنبية للأسطورة قضية خطيرة، ومن الواضح أن للمعجزة والسحر والكرامة والأسطورة مفهوم آخر غير المفاهيم التي ترد في كتب النقد وتاريخ الآداب والفنون.

وقصة « موسى والعصا » قـد اكتملـت جـوانبهـا الفنيـة

والفكرية من مقدمة وسرد وبناء وشخصيات وعقدة ونهاية، وفيها الفكرة الواضحة، والحوار المعبر، واللغة المناسبة، ولعلها أكثر توفيقاً ووضوحاً من القصص التي أشرف عليها الأستاذ محمد أحمد برانق والتي صدرت عن دار المعارف.

وبعد..

لم يتسع المقام لتقديم الكثير من النماذج التي تعبر عن كل لون من ألوان أدب الأطفال، لقد اكتظت الساحة بالكثير من الدراسات والمؤلفات وخاصة في القرن العشرين، واختلط المترجم والمقتبس والمعرب والمؤلف، وظهرت تيارات مذهبية، وعنصرية، ودينية مخالفة، في كثير من النصوص التي احتفظ بها، والتي آثرت عدم الإشارة إليها لسبب أو لآخر، والذي يهمنا في هذا المجال هو ضرورة وضع خطة على مستوى الدولة للرقابة على منشورات الأطفال بصفة عامة، سواء منها ما هو في القطاع الحكومي أو القطاع الحر الخاص، وساء منها ما هو في المذياع أو التلفاز أو المسرح أو السينما، وما هو في الصحف والمجلات.. وبغير هذه الخطة لن نستطيع تخليص التراث الأدبي للطفل مما شاب من آفات نفسية وعقلية وأخلاقية وسلوكية وأيديولوجية.

هذا هو مقترحنا الأساسي.

لكن الخطة، من سيضعها ويشرف عليها؟؟

لقد سبق وأشرنا إلى ضرورة تكاتف علماء الدين والتربية وعلم النفس والمجتمع ورجال الإعلام والأدب، ورجال النشر والتوزيع، وجهاز الترجمة عن اللغات الأجنبية..

وإذا استطاعت هذه الشخصيات ـ أو الجهات ـ المعنية أن تضع هذا الخطة وتتابع تنفيذها والإشراف عليها، وتناولها بالتقييم والتقويم... إذا استطاعت فعل ذلك، فسوف يمكننا الوصول بإذن الله إلى الغاية المنشودة وهو إيجاد جيل مسلم، يعتز بعقيدته، ويتميز بسلوكه، وينصرف إلى حياة العمل الجاد، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وإعطاء العلوم المعاصرة حقها من الاستيعاب والإضافة، والمساهمة في صنع حضارة إسلامية صادقة، قادرة على مواجهة الفساد والطغيان والزيغ، في هذا العالم الكبير، الذي توطّنت علله، وزادت أسقامه، واستشرى عذابه، واستبد به قلقه ويأسه.

والله من وراء القصد..

والحمد لله رب العالمين.

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - الأحاديث الصحاح
٣ - السيرة النبوية
٤ - الأدب وفنونه - الدكتور عز الدين إسماعيل
٥ - منهج الفن الإسلامي - محمد قطب
٦ - أصول النقد الأدبي - سيد قطب
٧ - في أدب الأطفال - الدكتور علي الحديدي
٨ - تاريخ التربية الإسلامية - الدكتور أحمد شلبي
٩ - عقيدة المسلم - محمد الغزالي
١٠ - في الرواية العربية - فاروق خورشيد
١١ - آفاق الأدب الإسلامي - دكتور نجيب الكيلاني
١٢ - الإسلامية والمذاهب الأدبية - دكتور نجيب الكيلاني
١٣ - وثائق المؤتمر العام الرابع عشر للأدباء العرب بالجزائر (مارس ١٩٨٤).
١٤ - وثائق حوار الأدب الإسلامي - المدينة المنورة - الجامعة الإسلامية ١٤٠٢ هـ.
١٥ - وثائق الدورة التدريبية لأدب الأطفال بقطر ١٤٠٤ هـ.

١٦ ـ مجلات الأطفال (السندباد ـ سمير ـ ميكي ـ ماجد ـ إفتح يا سمسم ... الخ) وكذلك صفحات أدب الأطفال في بعض الصحف العربية.
١٧ ـ أسس الصحة النفسية ـ الدكتور عبد العزيز القوصي
١٨ ـ علم النفس التربوي ـ الدكتور أحمد زكي صالح
١٩ ـ علم النفس التربوي ـ تأليف أرثر جيتس وآخرين
ترجمة د. إبراهيم حافظ وآخرين
٢٠ ـ وثائق الحلقة الدراسية عن رعاية الطفل في الاسلام (بإشراف المؤتمر الإسلامي) أبو ظبي ١٩٨٢.

الفهرس

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريّة - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٣١٩٠٣٩ - ٢٩٥٥٠١ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران

